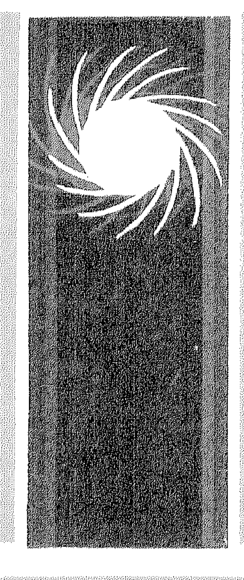
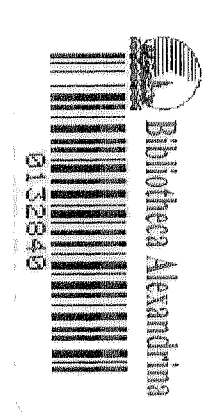
الأعلام

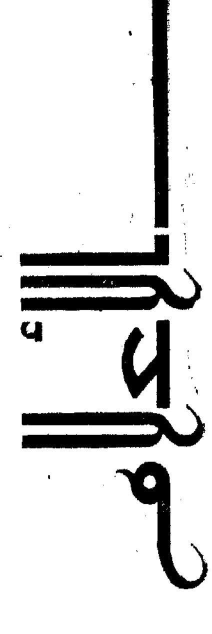


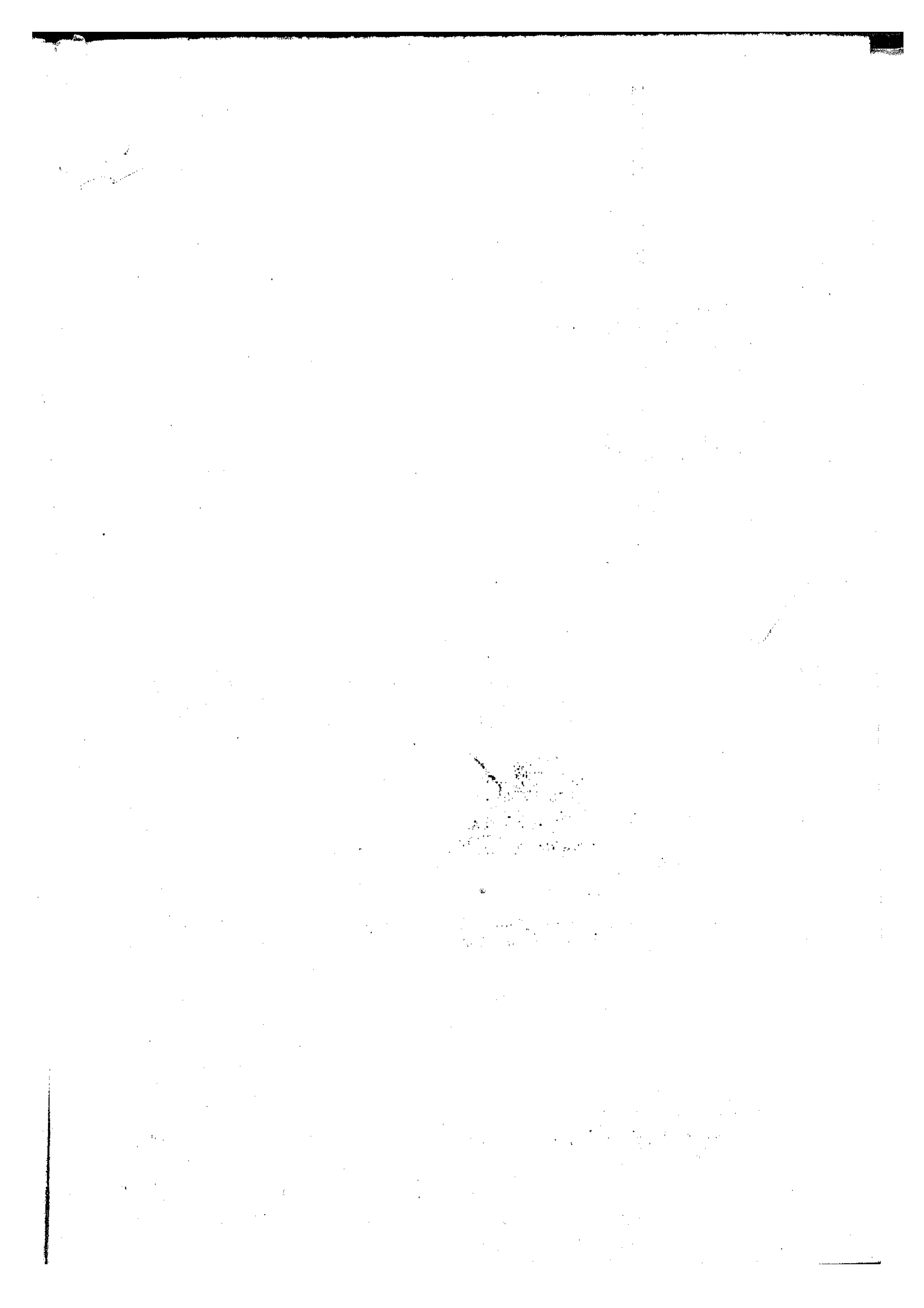
٢٠



قايتباى المحمودى

عبد الرحمن محمود عبد التواب



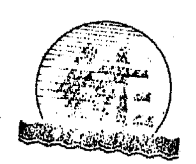


الأعلام

٢٠

قايتباى المحمودى

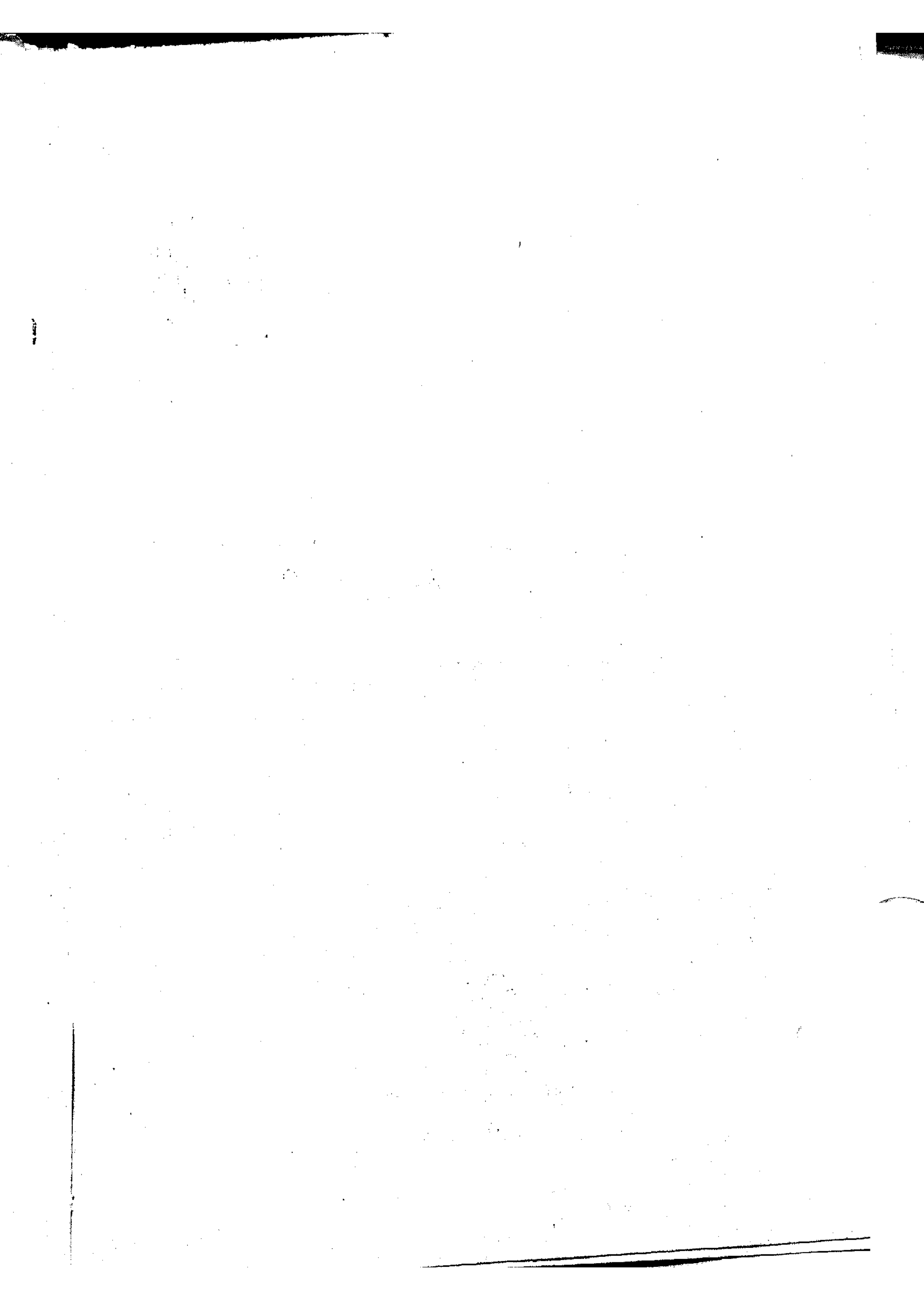
عبد الرحمن محمود عبد التواب





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٨



بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

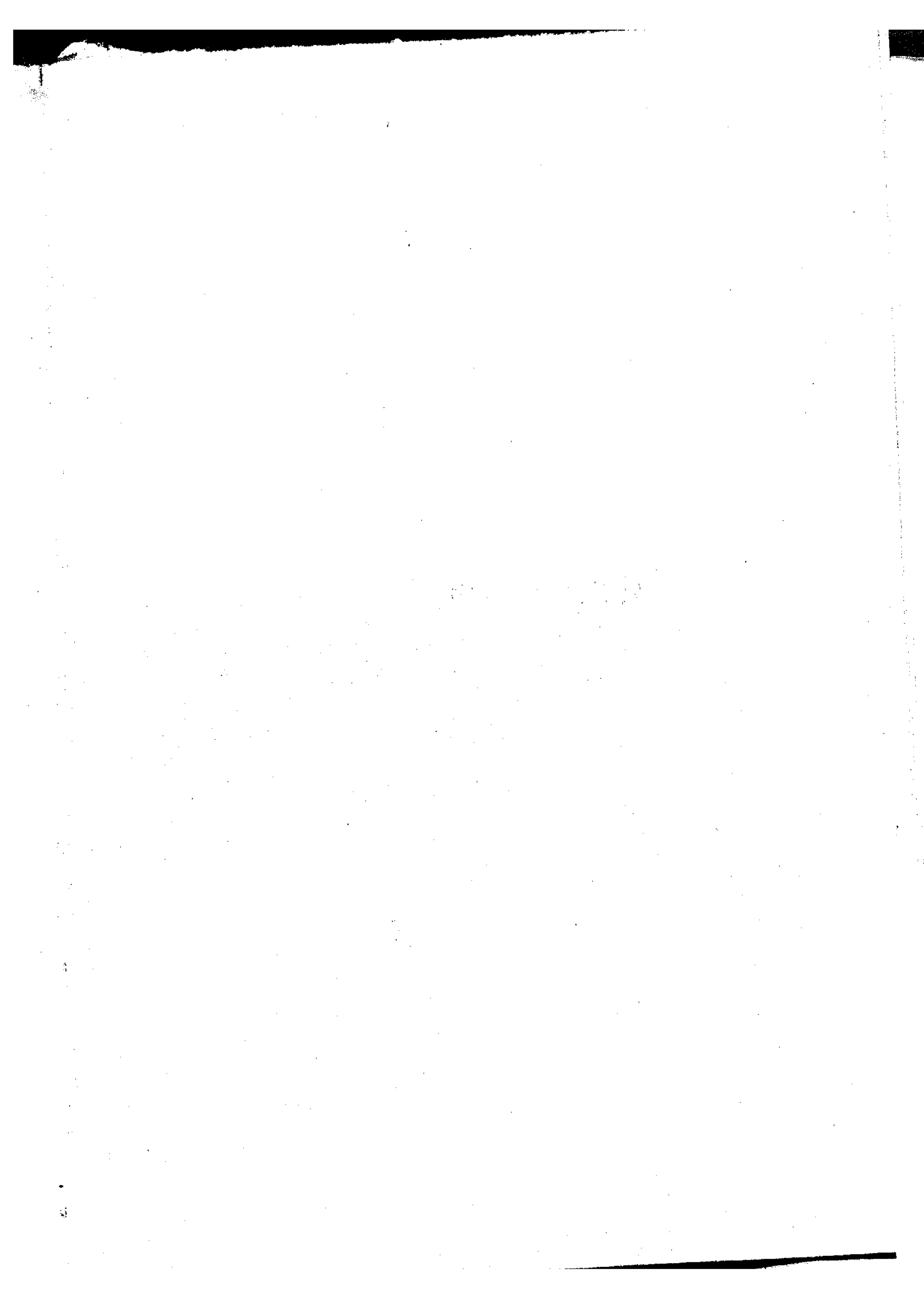
ترجع صـلتي بالسـلطان المملوكي قايتباى أعظم سلاطين المماليك الجراكسة الى ربع قرن مضى من الزمان ، عندما كنت منكبا على دراسة تاريخ دولة المماليك الجراكسة لأتبين علاقاتهم مع العثمانيين ، وهى العلاقات التى انتهت بالصـدام الحتمى فى عهد السـلطان العثمانى سليم الأول واختفاء دولة المماليك من مسرح التاريخ المصرى ، وذلك حتى أستطيع كتابة تاريخ حملة سليم ، ثم كان الانصراف عن ذلك العمل ، ــ وان ظل فى دائرة الآمال ــ الى دراسة الآثار فعشت بكليتى مع الآثار الاسلامية على مدى عصـورها التاريخية وبهرنى منها آثار الشراكسـة وهالنى ابتعـاد الكثيرين عن الكتابة عنها فيمـا مضى . وكانت آثار قايتباى تشدنى ولا أسـتطيع أن أخفى ما كان يتملكنى من نشوة كلما آنست فى رحابها جمالا . وعقدت العزم بصدق على دراسة آثار الشراكسة دراسة جادة ولازمنى التوفيق فى معظم الأحايين على الرغم مما صادفنى من عقبات الى أن انتهيت بحمد

الله من دراستها ، ولم يبق سوى اللمسات الأخيرة حتى ترى النور . ثم صحت العزيمة على التعريف بالمعظم قايتباى أكبر البنائين فى التاريخ المصرى الوسيط والذى لا يدانيه فى ذلك سوى الناصر محمد بن قلاوون أكبر البنائين من سلاطين المماليك البحرية ، وكان لى فى سلسلة أعلام العرب أكبر فرصة لتحقيق تلك الأمنية ، فاستخرت الله وسرت على بركته ، ودونت فى الصفحات التالية ما عن لى من سيرة ذلك السلطان ، وان كانت ترجمته فى الواقع تحتمل عدة مجلدات كما ذكر السخاوى المؤرخ ، فان وفقت فيما قصدت فمن فضل الله ، وأن جانبت الصواب فانى أرجو المغفرة ، والله يهدى الى سواء السبيل .

عبد الرحمن محمود عبد التواب

الفصل الأول

السلطان



نشأته وسلطنته :

جركسى الجنس ، جلبه الى مصر من بلاد الجركس الخواجا(١)
محمود بن رستم سنة ٨٣٩ هـ فعرف بالمحمودى نسبة اليه ،
ثم اشتراه الملك الأشرف برسباى هو وعدة مماليك صغار
بخمسين دينارا لكل منهم ، وأنزل بالطباق (٢) من القلعة ، وصار
من المماليك الكتابية ، واستمر كتابيا مدة سلطنة الأشرف
برسباى وابنه الملك العزيز يوسف ، ولما عزل العزيز يوسف
اشتراه الظاهر جقمق من بيت المال هو وعدة مماليك كتابية
واستمر فى رق الظاهر جقمق حتى أعتقه وصار جمدارا (٣) ثم
خاصكيا (٤) ثم دوادارا (٥) . وفى سنة ٨٦٢ هـ وأنعم عليه

(١) **الخواجا** : المعلم ومن معانيه الكاتب والتاجر

(٢) **الطباق** : جمع طبقة ، وهى مكان سكن المماليك بالقلعة .

(٣) **الجمدار** : هو الذى يلبس السلطان أو الأمير ثيابه .

(٤) **الخاصكى** : من حاشية السلطان ، وكان يتمتع بمكانة كبيرة ..

(٥) **الدوادار** : هو الذى يبلغ الرسائل عن السلطان ، ويقدم القصص اليه .

السلطان الأشرف اينال بامرة عشرة (٦) ، وظل أمير عشرة حتى عينه الظاهر خشقدم آمير طلبخاناه (٧) شاد الشرابخاناه (٨) .
وفى عهد السلطان الظاهر بلباى عين رأس نوبة النوب (٩) ، ولما ولى الظاهر تمربغا السلطنة عينه أتابكا (١٠) للعسكر ، فلما ثار خايربك الذى تسلطن وعرف عند العوام ، باسم سلطان (١١) ليلة على الظاهر تمربغا اتفق العسكر على سلطنة الأتابك قايتباى ، وكان القائم بهذا الأمر طائفة المماليك الاينالية والخشقدمية (١٢) .
ولما هزم خاير بك ملك الأمير يشبك الدوادار وجماعة من العسكر باب السلسلة بالقلعة وقبضوا على خاير بك وثار العسكر على الظاهر تمربغا ، وفى تلك الأثناء طلع الأتابك قايتباى الى باب السلسلة وجلس بالمقعد وتشاور مع العسكر فى أمر الظاهر تمربغا ، واجتمعت كلمتهم على خلع الظاهر تمربغا من السلطنة واستدعوا الخليفة العباسى أمير المؤمنين المستنجد بالله يوسف ، وقضاة القضاة الأربعة ولى الدين الأسيوطى الشافعى ، ومحب الدين بن الشحنة الحنفى ، وحسام الدين بن حريز المالكى

(٦) امرة عشرة : من يكون اميرا على عشرة فرسان .
(٧) امير طبلخاناه : من له اربعون فرسا .
(٨) شاد الشرابخاناه : هو المتحدث فى امور الشرابخاناه السلطانية .
(٩) راس نوبة النوب : هو الحاكم على المماليك السلطانية .
(١٠) اتابك العسكر : المقصود بها ابو العسكر .
(١١) اطلقت هذه التسمية على الثائر خاير بك لأن سلطنته لم تدم سوى ليلة واحدة .
(١٢) نسبة للسلطانين المملوكيين اينال وخشقدم .

وعز الدين الحنبلى ، فحضر الجميع ، كما حضر جماعة من الأمراء • وبعد أن اكتمل المجلس أعدت صورة شرعية بخلع الظاهر تمربغا من السلطنة فخلعه الخليفة فى الحال وبايع الأتابكى قايتباى سلطانا ، وتلقب بالملك الأشرف ، وأحضرت العمامة السوداء والجبة السوداء بالطرز الذهب والسيف البداوى وهى شعار الملك ، وتمنع قايتباى وبكى عندما أرادوا أن يفيضوا عليه شعار الملك ، ولكنهم ألبسوه ذلك الشعار غصبا ، ثم قدمت اليه فرس النوبة وحمل الأمير جانى بك قلقسيز باذن منه الصنجق السلطانى (١٣) على رأسه عوضا عن القبة والطير (١٤) لفقدهما من الزرد خاناه (١٥)، ثم سار السلطان الجديد وأمامه الأمراء وركب الخليفة عن يمينه حتى طلع من باب سر القصر الكبير وجلس على سرير الملك ، وقبل له الأمراء الأرض وتم ذلك كله فى السادس من رجب عام ٨٧٢ هـ ، وكان عمره أربعة وخمسين عاما كما سمع منه ، وصار الخامس عشر من ملوك الجراكسة وأولادهم بمصر والحادى والأربعين من ملوك الترك وأولادهم ، ودخل الأمير يشبك الدوادار وتمراز الشمسى على الظاهر تمربغا سلطانهم السابق

---

(١٣) **الصنجق** : العلم

(١٤) **القبة والطير** : ويعبر عنها بالمظلة وبالجتر ، وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب •

(١٥) **الزردخاناه** : بيت السلاح •

وأقاموه من فوق مرتبته وادخلوه قاعة البحرة بالقلعه وهـو فى غاية الاكرام وأخذوا منه النمجاة (١٦) والترس والدواه وهى من علامات السلطنة كذلك وأحضروها لسلطانهم الجديد الأشرف قايتباى ووضعوها بين يديه ، ثم ضربت له البشائر بالقلعة ونودى باسمه فى القاهرة ، وارتفعت الأصوات بالدعاء له من الخاص والعام . ولم ينفق السلطان على العسكر نفقة البيعة التى كان ينفقها كل سلطان بعد توليته الحكم وذلك تنفيذا لما اشترطه بأنه لن ينفق نفقة للبيعة قبل أن يقبل السلطنة ، ويبدو أن ذلك الاجراء ما اتخذ الا لما كانت تعانيه الدولة من سوء فى أحوالها الاقتصادية ، وحتى يتم له دراسة أحوالها ، على أن ذلك لم يكن سوى اجراء مؤقت اذ أن السلطان ما لبث أن .ضهم عن ذلك بعد فترة كما سيأتى تفصيل ذلك .

وبعد أن استتب الأمر للسلطان أخذ يرتب أمور الدولة ينظمها من تعيين وعزل للأمراء ، وسار فى ذلك على خطى السلاطين السابقين عليه ، متبعا فى ذلك نظام الدولة وقاموسها ولم يخالف ذلك النظام الا فيما ندركما سيأتى . وظل السلطان يقوم بأعباء الدولة فى عزم وثبات وقد واجه حروب شاه سوار أمير دلغادر وحسن الطويل صاحب العراقين وسلاطين آل عثمان وثورات العربان وعصيان بعض أقاليم السلطنة ولم يفت ذلك فى

---

(١٦) النمجاه : خنجر مقوس شبه السيف القصير .

عضده . ولكن ثورات الجلبان (١٧) قد سببت له الكثير من المضايقات مما دفعه الى التهديد أكثر من مرة بترك السلطنة حتى وضع ذلك التهديد موضع التنفيذ فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٨٩٤ هـ عندما جلس على الدكة بالحوش السلطانى من قلعة الجبل وجمع القضاة الأربعة وسائر الأمراء ، ولما اكتمل المجلس عرض عليهم السلطان النفقة التى يطلبها المماليك وما وصلت اليه حال الخزانة ، ونفوذ الأموال بها والتى صرفت على الحروب، وطلب من الأمراء أن يختاروا من يولونه السلطنة بدلا منه وأحضر فرس النوبة وأحضر القبة والطير ثم قام وقال للقضاة اشهدوا على أنى قد خلعت نفسى ، وتوجه الى قاعة البحرة فمنعه القضاة حتى أن قاضى القضاة المالكى أظهر أسفه على ما حدث وأخذ يتمرغ فى التراب ، وسارت الرسل بين السلطان والجلبان وتم الاتفاق على أن ينفق السلطان على الجلبان خمسين دينارا لكل منهم أربعون معجلا وعشرة مؤجلا ، وأن ينفق على القرانصة خمسة وعشرين دينارا لكل منهم ، ثم أرسل السلطان من أحضر الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز من مسكنه بالحوش السلطانى ليجدد له البيعة ثانية بحضرة القضاة الأربعة ، فكانت مدة سلطنته الأولى الى أن خلع نفسه اثنين وعشرين عاما الا ثلاثة أشهر ، وانقضى ذلك اليوم العصب .

---

(١٧) **الجلبان** : احدى فرق الجيش المملوكى ، والمقصود بها المماليك الذين كان يشتريهم السلطان لنفسه .

زوجات السلطان وذريته وأقاربه :

تزوج قايتباى من خوند (١٨) فاطمة بنت العلائى بن خاص بك ، وكانت مقيمة في داره بسوق الغنم ، ثم صعدت الى القلعة فى شوال سنة ٨٧٢ بعد سلطنته ، وقد أحاط بمحفتها (١٩) نساء الأمراء وأرباب الدولة وأعيان الخدام . حجت خوند فاطمة فى سنة ٨٧٩ هـ وكان يوم خروجها الى السفر للحجاز يوما مشهودا ، وحج معها أخت السلطان ، وخرج أمام محفتها أرباب الدولة وكاتب السر (٢٠) وناظر الجيش (٢١) وناظر الخاص (٢٢) وغيرهم من المباشرين ومشى الزمام (٢٣) ومقدم المماليك (٢٤) وأعيان الخدام وبأيديهم العصى وأمامها أربعة من الحداة بينهم ابراهيم بن الجندى المغنى ، وكان المرافق لها فى سفرها والدها وبرسباى المحمودى الخازندار . وعادت خوند فاطمة بعد انتهاء مشاعر الحج فى المحرم عام ٨٨٠ هـ واستقبلها الأمراء حتى قضاة القضاة الذين ترجلوا لها وهى فى المحفة ، ولاقاها المغانى

---

(١٨) خوند : لفظ تركى معناه السيد أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والاناث على السواء .

(١٩) المحفة : مثل الهودج .

(٢٠) كاتب السر : صاحب ديوان الانشاء .

(٢١) ناظر الجيش : المتحدث فى أحوال الجيش .

(٢٢) ناظر الخاص : المتحدث فى خاص أحوال السلطان .

(٢٣) الزمام : الموكل بحفظ الحريم .

(٢٤) مقدم المماليك : المتحدث فى شأن المماليك .

بالطارات ، ولما صعدت القلعة رفع على رأسها القبة والطير ونثرت عليها خفايف الذهب والفضة ، وقدمت الهدايا اليها من أرباب الدولة وأعيان الناس . ولم يتزوج السلطان من أحد غيرها ، ولم تكن له سوى سرية واحدة هى خوند أصل باى والدة ابنه محمد الذى تسلطن بعده .

أما أولاد السلطان من فاطمة فقد أنجب منها ابنه أحمد وهو أول أولاده منها ومات صغيرا فى رمضان سنة ٨٧٣ هـ ، كما أنجب منها بنتا اسمها ست الجراكسة وماتت صغيرة هى الأخرى .

أما أولاده من سريته خوند أصلباى فقد أنجب منها ابنه محمد فى شوال عام ٨٨٧ هـ وهو الذى تسلطن بعده . وكان ختان ابنه محمد من أيام القاهرة المعدودة ، وقد احتفل بختانه فى رجب سنة ٨٩٥ فى القلعة وظل الاحتفال سبعة أيام سويا ، اجتمع فيه سائر المغانى وأمر السلطان أن تزين القاهرة فزينت حتى زين داخل الأسواق ، وخرج الناس فى فرحهم عن الحد ، وساعدهم على ذلك عدم الخوف من أذى المماليك اذ كانوا فى الحرب خارج الديار ، وقدم للسلطان من الهدايا ما لا يمكن حصره من مال وخيول وقماش وسكر وأغنام وأبقار وغير ذلك مما يزيد على خمسين ألف دينار ، وأهدى المقر الشهابى أحمد ابن العينى من جملة ما أهدى طشت وأبريق ذهب زنته نحو

ستمائة مثقال برسم الختان ، وختن مع ابن السلطان كثير من أولاد الأمراء والخاصكية ، وكانوا زيادة عن أربعين ولدا ، وأمر السلطان لكل صبى بكسوة على قدر مقام أبيه . وفى العشرين من رجب اجتمع الأمراء المباشرون وأعيان الناس بالحوش السلطانى وركب ابن السلطان من قاعة البحرة وسار أمامه الأمراء والخاصكية حتى قاضى القضاة الحنفى ناصر الدين بن الاخميمى وسائر أعيان المباشرين والخدام وأمسك بلجام الفرس الأمير أقبردى الدوادار والشهابى أحمد بن العينى ، واستمر ابن السلطان فى ذلك الموكب الى باب الستارة (٢٥) والسلطان جالس فى المقعد ينظر اليه وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير ، ونثر على رأسه خفايف الذهب والفضة ، ولاقاه المغانى فنزل عن فرسه بباب الستارة ودخل قاعة البيسرية (٢٦) حيث كان الختان . ونال المزين من الهدايا خمسة آلاف دينار ، وبعد الختان نزل أبناء الأمراء الى دورهم وشقوا القاهرة فى موكب حافل ، ورسم السلطان للقضاة الأربعة بأن يركبوا أمامهم فصدعوا للأمر .

وفى ذى القعدة سنة ٨٩٥ هـ شرع السلطان فى بناء دار لابنه على بركة الفيل ليسكن فيها كأبناء السلاطين ، ونزل ابنه

(٢٥) باب الستاره : أحد الأبواب بالقلعة ، وكان يؤدى الى مكان اقامة الحريم .

(٢٦) البيسرية : من قاعات القلعة .

اليها لأول مرة فى صفر سنة ٨٩٩ فأقام بها ساعة ثم عاد الى القلعة، وكان هذا أول ظهوره للناس ونزوله الى المدينة وكان معه أقبردى الدوادار والجم الغفير من الجند ، وأنفق السلطان بهذه المناسبة على الجند لكل خمسين دينارا وسموها نفقة نزول ابن السلطان ، ويبدو أن السلطان ما فعل ذلك الا لكى يظهر ثراء الدولة لرسول السلطان العثمانى الذى كان موجودا آنذاك .

وعند فتح سد بركة الأزبكية فى ذى الحجة سنة ٨٩٩ هـ عزم الأمير أزبك على ابن السلطان لحضور الاحتفال ، فنزل من القلعة وبات عنده فى القصر المطل على البركة ، وقدم له هدية ما بين مماليك وخيول وقماش ، ثم عاد الى القلعة فى اليوم التالى .

وعلى الرغم من أن محمدا هذا هو ابن السلطان الوحيد فقد غضب عليه فى رجب سنة ٩٠٠ هـ وألبسه أردأ الثياب وأنزله الى طبقة الميدان ، ولم ينعم عليه بامرة عشرة فى أيامه قط ، وطلب من المشرف عليه أن يأمره بكنس الطبقة ويقعد على السفرة آخر المماليك وان عصى يضربه ويعامله معاملة المماليك الجلبان ، فأقام فى الطبقة أياما حتى طلع الأتابكى أزبك وشفع فيه ، وظل يمقته السلطان حتى مات .

ولما مرض السلطان مرض موته صعد الأتابكى تمراز الى القلعة ودخل عليه فى المبيت وكان يحتضر ، وعرض عليه فساد الأحوال وأن الأمر يستدعى سلطنة ابنه ، وطلب اليه الموافقة

ولكنه لم يرد جوابا فأخذه ونزل من باب السلسلة (٢٧) ليتخذ اجراءات اعـــلانه ســلطانا خلفا لوالده ، ويبدو أن الســـلطان بالاضافة الى غضبه من تصرفات ابنه فانه كان مشـــفقا عليه مما سيواجهه من تصرفات المماليك الجلبان الذين ضاق أبوه ذرعا من تصرفاتهم على الرغم من صــبره وحنكته • كان الســـلطان ولا شك بعيد النظر فى عدم الموافقة على تولية ابنه السلطنة فقد أثبتت الأيام عدم صلاحيته لهذا المنصب الخطير فكان من أمره أن قتل شر قتله • هذا ولم يغب عن ناظرى السلطان ما كان يحل بأبناء السلاطين الصغار الذين يتولون السلطنة خلفا لآبائهم من عزل وتشريد وقتل لا لســـبب ســـوى النزاع على السلطنة بين الأمراء تحقيقا لمطامعهم الشخصية •

لم يكن للسلطان أقارب بمصر ســـوى أخته جان تين التى وصلت من بلاد جركس فى رجب سنة ٨٧٧ هـ ومعها ابنها وعدة نساء جراكسة • وفى شعبان سنة ٨٨٤ هـ أحضر قانصوه الألفى عندما سافر الى بلاد جركس بعض أقارب السلطان • وفى شعبان سنة ٩٠٠ هـ وصل القاهرة شخص جركسى جاوز الستين من عمره ومعه اثنان من أولاده وهما شـــابان يافعان ، وذكر أن الشيخ أخو السلطان وأنه كان مقيما فى بلاد الفرنج ، فلما حضر اعتنق الاســـلام وختن هو وأولاده وسمى قيت وسمى أولاده ، جانما

(٢٧) **باب السلسلة** : من أبواب القلعة •

وجانى بك ورتب لهم المرتبات وأنزلهم فى الطبقة وصـارو من جملة المماليك السلطانية •

السلطان والخلافة العباسية :

لم أعثر فى المراجع المعاصرة على تقليد من الخليفة للسلطان كما كان متبعا من قبل ، هذا ولم تشر المراجع الى صـدور مثل ذلك التقليد عن الخليفة ، ويبدو أن السـلطان كان فى غنى عن ذلك التقليد ، والواقع أن الخليفة أمير المؤمنين المسـتنجد بالله أبا المحاسن يوسـف الذى ولى الخلافة سنة ٨٥٩ هـ وظل فيها حتى سـنة ٨٨٤ هـ وكذا الخليفة الذى تولى بعد وفاته وبعهد منه ، وهو ابن أخيه أبى العز عبد العزيز يعقوب ابن المتوكـل والذى لقب بالمتوكل كانا يقيمان بسكن الملك المنصور عثمان ابن السلطان جقمق بالحوش السلطانى بالقلعة وأنه لم يكن لهما من الخلافة الا الاسم ، وليت الأمر اقتصر على ذلك بل تعداه الى البطش بهما • فبعد أن بويع قايتباى بالسلطنة أخرج قرية امبابة عن الخليفة المسـتنجد بالله يوسف وكانت بيده منذ أيام المؤيد أحمد بن الأشرف اينال عندما أقطعها اياه ، وزاد السـلطان فى بطشـه فأخرج عنه بعد مدة يسـيرة أيضا جزيرة الصـابونى وأقطعها لبعض مماليكه واعتبر ذلك من مساوىء السلطان على حد قول المؤرخين المعاصرين •

وبعد موت المستنجد بويع ابن أخيه بالخلافة فى ١٤ محرم سنة ٨٨٤ هـ وسمى المتوكل على الله وأحضر اليه شعار الخلافة وقدمت اليه فرس النوبة ، فنزل من القلعة فى موكب حافل وأمامه قضاة القضاة وأعيان الدولة فتوجه الى مسكن الخلفاء بجوار ضريح شجرة الدر ، ثم تحول من يومه وطلع الى القلعة وسكن بدار عمه يوسف حتى يكون كما كان عمه قريبا من السلطان ولا يستطيع أن يتصل بأحد وبعبارة أخرى فقد كان هو وعمه كالمتحفظ عليهما .

وعلى الرغم من أن السلطان أمر فى ربيع الأول سنة ٨٨٩ هـ بعمل مولد للسيدة نفيسة رضى الله عنها ، وهو أول مولد لها وقد حضره الخليفة والقضاة الأربعة وأعيان الناس واحتفل به احتفالا عظيما وأطلق عليه مولد الخليفة الا أن السلطان سرعان ما تغير خاطره على الخليفة وأخذ يتحين الفرص للبطش به كما سبق أن فعل بعمه وقد واتته الفرصة فى جمادى الآخرسنة ٨٩٩ هـ عندما شب حريق مجهول بالقلعة فى حواصل السلطان عند البحرة ، وكان بها خيام كثيرة احترق غالبها ولم يسلم منها سوى خيمة المولد الشريف فقط ، وقدر قيمة تلك الخيام بنحو من مائتى ألف دينار ، وقيل أكثر من ذلك وظل سبب اشعال تلك النار مجهولا ، ثم أشيع أنها كانت من مطبخ بيت الخليفة ، وكان الحريق مدمرا واستمر ثلاثة أيام ، وعمل

السلطان بنفسه فى اطفائه مع المماليك وصعد الأمراء للقلعة لمواساة السلطان وأحضروا من حواصلهم خياما جددا عوضا عن تلك التى التهمتها النيران وكان ذلك الحريق المجهول السبب ، ذريعة للتنكيل بالخليفة فقد استشاط ـ السلطان غضبا من ذلك وأمر الخليفة بأن ينزل من القلعة ويسكن بالمدينة ونزل الخليفة وعياله من القلعة وسكن فى القاعة المجاورة لضريح شجرة الدر بالقرب من المشهد النفيسى وأخذ بهذه الضربة التى روجها أعداؤه .

ويبدو أن السلطان بعد أن انتزع قرية امبابة وجزيرة الصابونى من الخليفة المستنجد بالله يوسف اكتفى بما يدره عليه المشهد النفيسى من النذور ، ولم تشر المراجع الى موارد الخليفة المتوكل على الله أبى العز عبد العزيز يعقوب الذى تعفف عن الاستيلاء على ما يتحصل من مشهد السيدة نفيسة من النذور وقرر صرفها على اصلاح المشهد وصيانته وعمارته .

وعلى الرغم من أن الخليفة لم يكن سوى خليفة اسمى الا أن المتوكل أسهم فى تسوية الخلاف بين السلطنة المملوكية وآل عثمان ، فأرسل مع جانى بك حبيب رسالة فى صفر سنة ٨٩٠ هـ للسلطان العثمانى لتهدئة العداء القائم ، كما أرسل تقليدا الى ابن عثمان «بأن يكون مقام السلطان على بلاد الروم وماسيفتحه الله على يده من البلاد الكفرية » .

رعايته للآخرين :

لجأ كثير من الأمراء والرسميين فى الدولة الى بلاد آل عثمان من اضطهاد السلطان خشقدم وظلوا مقيمين بها حتى تولى قايتباى السلطنة فأخذوا فى العودة الى ديارهم وشجعهم على ذلك سماحة السلطان ، ومن هؤلاء الذين عادوا الى الديار جانى بك حبيب الذى عاد من بلاد الروم فى شوال سنة ٨٧٢ هـ ولما وصل أكرمه السلطان وخلع عليه ومنحه ألف دينار ، كما حضر أيضا فى المحرم سنة ٨٧٣ الزينى عبد الرحمن بن الكويز الذى كان ناظرا للخاص وفر أيضا خوفا من خشقدم ، ولما مثل بين يدى السلطان خلع عليه ورحب به ونزل الى داره .

كانت مصر فى عهده مقصدا وموئلا لأولئك المضطهدين فى البلاد المجاورة ، حضروا اليها لينعموا برعاية سلطانها ، وليعيشوا فى مأمن مما قد يحيق بهم فى بلادهم ومن هؤلاء اللاجئين الذين أكرم السلطان وفادتهم نور على من ماردين حضر الى مصر فى رجب سنة ٨٩٩ هـ فارا من صاحب العراقين ، فلما حضر أكرمه السلطان ورتب له ما يكفيه وظل مقيما فى مصر ينعم برعاية السلطان وعدله .

أما الأمراء الذين تعرضوا للاضطهاد والنفى والسجن قبل حكمه وأولئك الذين أصابتهم نقمته وغضبه فكان يقبل شفاعة الشافعين فيهم ويأمر بعودتهم الى القاهرة للاقامة فى دورهم

ونسوق من ذلك على سبيل المثال انعامه فى رجب سنة ٨٧٢ هـ على قرقماس الجلب وتعيينه آمير مجلس (٢٨) بعد استدعائه من منفاه بدمياط ، واستدعائه فى نفس الشهر للناصرى محمد ابن الأتابكى جرباش كرت من منفاه بدمياط وانعامه عليه • وعندما ظهر القاضى تاج الدين بن المقسى فى صفر سنة ٨٧٥ هـ وكان مختفيا خلع عليه السلطان وأعاده الى وظيفته • وعندما حضر فى ذى الحجة سنة ٨٧٦ اياس الطويل المحمدى الذى كان نائبا لطرابلس أكرمه السلطان وخلع عليه وأركبه فرسا بسرج ذهب وكنبوش (٢٩) وأعاده الى طرابلس وأنعم عليه بامره فيها يأكل منها وهو طرخان (بدون عمل) وذلك لكبر سنه وعجزه عن الحركة واحتراما لشيخوخته • كما شفع فى جمادى الآخرة سنة ٨٧٧ هـ فى جانى بك المشد الأشرفى برسباى الذى كان مقيما بالقدس بطالا (بلا عمل) وحضر الى القاهرة ورتب له ما يكفيه واستمر مقيما بداره حتى مات •

عاش الأجانب فى أيامه فى بحبوحة من العيش وأخذوا يمارسون تجارتهم ولم يتعرض أحد لهم أو لتجارتهم بأذى وعندما غرقت احدى المراكب فى النيل قرب بيسوس فى ذى القعدة سنة ٨٧٦ هـ وكان بها بضائع كثيرة لتجار من الأروام

---

(٢٨) **امير مجلس** : المتولى أمر مجلس السلطان أو الأمير •

(٢٩) **الكنبوش** : البرذعة تجعل تحت سرج الفرس •

أرسل السلطان شرف الدين بن كاتب غريب والقاضى جلال الدين ابن الأمانة أحد نواب الشـافعية وأمرهما بالتوجه الى مكان الحادث لضبط ما يظهر من تلك البضائع الغارقة .

وقد أضـفى السـلطان رعايته على النابهين والمبرزين من رجال الدولة ومن ذلك رعايته لتانى بك المعلم وكان من النابغين فى لعب الكرة والرمح ولمجد الدين اسماعيل الشطرنجى وكان نابغا فى لعبة الشطرنج وجيها عند الأمراء كثير العشرة للناس . وللشيخ جعفر بن ابراهيم السنهورى الشافعى شيخ القراء بمصر وكان يقرأ بأربع عشرة رواية ، وكان علامة فى فن القراءات . والشيخ شعبان بن الزواوى شيخ القبانيين وكان من الأعلام فى صنعه القبانة وتحرير الأوزان . وللشيخ سليمان بن محمد المغربى الذى كان اماما للخليفة ورأسـا فى علم الميقات وغيرهم ممن ازدانت بهم دولة الأشرف قايتباى .

كان السلطان يزور المرضى من رجال دولته ويواسيهم ومن ذلك على سبيل المثال زيارته للأمير سودون البرقى ، أحد أمرائه وجدير بالذكر أن هذا المرض هو الذى مـات بعده سـودون بقليل . ونزوله الى دار تمر حاجب الحجاب لزيارته أثناء مرضه وكان قد انقطع عن الركوب والصعود الى القلعة .

ولم تقتصر رعاية السـلطان للأحياء بل تعدتها للأموات فكثيرا ما نزل من القلعة للصـلاة على بعض الأمراء وأبنـاء

السلاطين وغيرهم ، كما كان وفيا لذكراهم ولأبنائهم واشتد به الحزن على أحد رجال دولته حتى صرح بأنه لو كان يفتدى لفداه بالمال • والأمثال كثيرة على وفاء السلطان للموتى نورد منها حزن السلطان وبكائه عندما أحضر اليه سيف برقوق الناصرى الظاهرى نائب الشام وأمره باحضار أولاده وعياله الى القاهرة ونقل جثته لتدفن بالتربة التى كان أنشأها بباب القرافة وكان برقوق هذا عند السلطان بمرتبة الأخ ، وتصريحه عند وفاة أبى البركات أحمد بن يحيى بن شاكر كاتب السر بأنه لو كان يفتدى بمال لفديته ، وحزنه وأسفه عليه فقد كان المتصرف فى أشغال السلطان الذى عين أخاه صلاح الدين فى نيابة السر عوضا عنه • أما حزنه على وفاة الأمير يشبك الدوادار الكبير وأعظم شخصية فى دولته فأجل من أن توصف وتعدى حزنه عليه الى خاير بك (٣٠) من حديد عندما طلب من السلطان أن يمنحه اقطاع يشبك بعد قتله فصب عليه جام غضبه وأهانه اهانة بالغة ، فنزل الى داره وأغلق بابه وصرف غلمانه وامتنع عن الاجتماع بالناس وتفوه بكلمات كثيرة فى حق السلطان ، وكان صعب المراس شديد الخلق قوى البأس ، فلما بلغ السلطان ذلك استدعاه ، فاختفى وخرج من داره ولبس جبة بيضاء وتعمم بمئزر صوف أبيض كذلك ، وأخذ بيده سبحة وادعى أنه ترك

(٣٠) من : معناها الذى باعه والمقصود هنا أن حديدا هو الذى باع خاير •

الدنيا وبقي فقيرا مجردا وتوجه الى جـامع قيدان عند قناطر الأوز وكان قد أنشأ عنده جوسقا مطلا على بركة الرطلي فأقام به ، فلما بلغ الأمير تمراز ذلك توجه اليه ورجاه فى العودة الى داره فلم يوافق على ذلك وأصر على رأيه وبقى هنـاك أياما ، ثم أرسل اليه السلطان قانصوه خمساية فأخذه من هناك ووضعه فى الحديد وطلع به الى القلعة سائرا على قدميه ، فلما مثل بين يدى السـلطان أنبه بالكلام وكاد أن يفتك به ثم أمر بنفيه الى دمشـق وسـجن بها • وجدير بالذكر أن خاير بك هذا من اخصاء السلطان ومن أكبر أصحابه منذ أن كان السلطان خاصكيا فانقلب عليه كأنه لم يعرفه •

أما رعاية السـلطان لأولاد السلاطين وللسـلاطين الذين تسلطنوا قبله فلم تحدث من قبل وهى تدل على شـجاعة وثقة كاملة فى النفس اذ تركهم ولم يخش منهم عـلى ملكه • ومن هؤلاء الذين حباهم السلطان برعايته منصور بن السلطان خشقدم والملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال والسلطان الظاهر تمربغا والملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق •

أما منصور بن الظاهر خشقدم فعندما صعد الى القلعة لتهنئة السلطان بالعيد ودخل على السلطان وكان جالسا على الكرسى بالقصر الكبير ، ولما وقف منصور بين يدى السلطان خلع عليه •

ثم أجلسه معه على الكرسى وكان صغير السن عمره دون العشر سنين ٠

وأما الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال فقد حضر الى القاهرة فى ربيع الآخر سنة ٨٨٤ هـ لزيارة والدته التى مرضت مرض الموت ولم يمانع السلطان فى اجابتها الى طلبها وحضور ابنها لكى تراه ، وعندما حضر وطلع الى القلعة ودخل الحوش وهو راكب ومعه ولده قام السلطان ورحب به وخلع عليه وعلى ولده ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه الأمراء ونزل بداره التى كانت بالجسر الأعظم (٣١) عند والدته ٠ أضاف السلطان الملك المؤيد بالبحرة وخلع عليه وعلى ولده ، وأذن له بالعودة الى الاسكندرية ، وفى هذه الزيارة قدم الملك المؤيد للسلطان هدية جليلة من مال وتحف من تركة والدته ، ثم سافر الى الاسكندرية بعد أن أقام بالقاهرة شهرين ٠

ولما زار السلطان الاسكندرية الزيارة الأولى خلع على الملك المؤيد ولعب معه الكرة ، وفى سفره للمرة الثانية كان الملك المؤيد موجودا بالقاهرة لزيارة والدته المريضة ، وقد تعجب الناس كيف سافر السلطان وتركه بالقاهرة وغالب المماليك الموجودين بها مماليك أبيه الملك الأشرف اينال ٠

---

(٣١) **الجسر الأعظم** : موقعه بالنسبة للقاهرة الحالية شارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسينة سابقا) ٠

أما الملك الظاهر تمربغا الذى خلفه قايتباى فى السلطنة ، فقد أمر السلطان فى رجب سنة ٨٧٢ هـ باخراجه ، الى ثغر دمياط وهو فى غاية العز والاكرام من غير تقييد ، وعندما كان بالبحرة قبل سفره كان يرسل اليه السلطان فى كل يوم الأسمطة الحافلة وعندما خرج للسفر اجتمع به السلطان واعتذر اليه عما حدث بشأن السلطنة وأنه لم يكن باختياره ، وانما كان على كره منه وذلك تبريرا لحنثه الايمان التى كانت بينه وبين تمربغا بالأ يلى السلطنة ، وودع السلطان الظاهر تمربغا قبل سفره الى دمياط من القلعة وهو راكب على فرس من خيل السلطان ونزل من باب القرافة بعد العشاء وتوجه الى ساحل البحر ونزل فى الحراقة وتوجه الى ثغر دمياط حيث سكن أحسن دورها ، كما كان يركب لصلاة الجمعة وبينما كان السلطان مشغولا فى تدبير المال اللازم لمواجهة نفقات الحرب ضد شاه سوار ووقوف شيخ الاسلام أمين الدين الاقصرائى الحنفى فى وجه السلطان ليمنعه من الاعتداء على أملاك الأوقاف والمساجد وردت الأخبار من دمياط بفرار الظاهر تمربغا ، وأن شيخ العرب محمد بن عجلان وعيسى بن سيف أنزلاه فى مركب وطلعا به من الطينة (٣٢) وكان قصدهم التوجه الى حلب ، وعندما تأكد السلطان من ذلك اضطرب وضاق بالأمر ذرعا وشغله ذلك عن أمر شاه سوار

---

(٣٢) **الطينة** : بليدة بين الفرما وتنيس .

وعرض العسكر ، وأمر الأمير يشبك بأن يخرج ويلافى الظاهر تمربغا من غزة فخرج على جرائد النخيل (٣٣) ، واحتاط من جهته للأمر وأمر بالنداء فى القاهرة بالا يخرج أحد من داره بعد صلاة العشاء ولا يحمل سلاحا ولا يخوض أحد فى الكلام فى شأن الظاهر .

وفى ذى الحجة سنة ٨٧٢ هـ قبض أرغون شاه الأشرفى على الظاهر تمربغا وتلقاه الأمير يشبك عند بلبيس وحمله فى محفة وتوجه به الى ثغر الاسكندرية من غير تقييد ، ورفق به السلطان ثانية فلم يسجنه وأمر له بأن يسكن بدار الملك العزيز بالاسكندرية وأن يركب الى صلاة الجمعة والعيدين . وكتب الظاهر تمربغا كتابا الى السلطان بخطه وذكر فيه «المملوك تمربغا يقبل الأرض وينهى » ، واعتذر عما وقع منه بسبب هربه من دمياط واعتل بأنه كان يقصد التوجه الى شاه سوار ليصلح بينه وبين السلطان لتخمد الفتنة التى أضرمها ، ويبدو أن جماعة تمربغا وهم الظاهرية كانوا على علم بالأمر وأنهم استاءوا من أرغون شاه نائب غزة الذى قبض على تمربغا .

وما زال السلطان يرعى الظاهر تمربغا ففى شوال سنة ٨٧٣هـ أرسل اليه بالاسكندرية فرسا وخلعه واستمر فى السماح له

(٣٣) اى مسرعا .

بالركوب الى الجامع وصلاة الجمعة والعيدين والى حيث شاء بالاسكندرية ، وظل الظاهر تمربغا مقيما بالاسكندرية معززا مكرما حتى توفى فى ذى الحجة سنة ٨٧٩ هـ وقد جاوز الستين من عمره ، وكان من مماليك الملك الظاهر جقمق اشتراه سنة ٨٢٧ هـ وأعتقه ثم تدرج فى سلك الوظائف حتى صار سلطانا ، وظل فى السلطنة ٥٨ يوما « وكان ملكا جليلا شجاعا بطلا عارفا بأنواع الفروسية وافر العقل كامل الهيئة واليه تنسب أشياء كثيرة فى مسألة الحرب وفى النشاب والرمح » .

أما الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق فقد أذن له السلطان فى شوال سنة ٨٧٣ هـ بالحضور من الاسكندرية لتأدية فريضة الحج ، فلما صعد القلعة ووقف بين يدى السلطان وأراد أن يقبل الأرض نهاه عن ذلك وبالغ فى اكرامه ، وخلع عليه وقدم اليه فرسا بسرج ذهب بكنبوش ، فركب من الحوش ونزل من القلعة فى موكب حافل وأمامه الأمراء وتوجه الى دار الأتابكى أزبك زوج أخته وأقام عندها وكان زوجها غائبا . وبعد أيام اضافه السلطان بالبحرة وقدم له الأسمطة كما خلع عليه ونزل فى موكب حافل ، ثم أخذ السلطان فى تجهيز سفر الملك المنصور للحج ، وخرج صحبة الحج ، وأنعم عليه السلطان بأشياء كثيرة . وبعد أن أدى فريضة الحج عاد فى المحرم سنة ٨٧٤ هـ ولما طلع الى القلعة احترمه السلطان وأكرمه وخلع

عليه ونزل فى موكب حافل الى دار الأتابكى أزبك • وفى صفر سنة ٨٧٤ هـ أضاف السلطان الملك المنصور عثمان بالبحرة وخلع عليه وأذن له بالتوجه الى ثغر دمياط •

وحضر الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق للمرة الثانية فى ذى الحجة سنة ٨٧٨ هـ وأكرمه السلطان وخلع عليه ونزل الى دار الأتابكى أزبك عند أخته ، ثم صعد القلعة لضرب الكرة مع الأمراء وعومل معاملة السلاطين فى ارخائه البند الأصفر وتغييره الفرس فى المكان الذى يغير فيه السلطان فرسه ، وأقام الملك المنصور بالقاهرة نحو الشهرين ثم عاد الى دمياط وكان فى غاية العز والعظمة ، وعند ختان أبناء الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق فى دمياط فى ذى الحجة سنة ٨٨٠ هـ أرسل اليه السلطان ألفى دينار وتوجه اليه ابن رحاب المغنى وأنشد فى الزفة •

وظل الملك المنصور عثمان بن الظاهر جقمق فى عز وأبهة يتصرف وكأنه سلطان لم يخلع الى أن توفى فى المحرم سنة ٨٩٢هـ فى دمياط وأمر السلطان بنقل جثته الى مصر وأحضرت الجثة ودفن على أبيه الملك الظـاهر جقمق بتربة قانى باى الجركسى بمسجده الذى مازا قائما بحى السيدة عائشة •

عطف السلطان :

تميز السلطان قايتباى بالعطف على الفقراء وأرباب الديون وذوى الحاجات والمعوزين وقد امتلأت صحائفه بذلك وعدت من

محاسنه ونورد من ذلك على سبيل المثال اطلاقه بعض المساجين بسجن المقشرة وكان أحدهم مسجونا به منذ ثلاثين سنة لم يستطع أن يوفى ما عليه من ديون حتى وفاها عنه السلطان وأطلقه، وتوزيعه نحوا من ثمانمائة دينار على الفقراء والمدينين • ومنها ما استنه من توزيع العطاء على الفقهاء والعلماء ، توسعة فى شهر رمضان واستمر ذلك فى كل شهر من رمضان حتى وفاته • وعندما سقط أحد النجارين ممن كانوا يعملون فى طباق المماليك بالقلعة ومات التمس أولاده صدقات السلطان فأمر بمنحهم مائة دينار وثوبا بعلبكات وثلاثة دنانير أشرفية لتجهيز الميت • وعطفه على رجل فقير أنجب أربعة أولاد بعشرة دنانير وخمسة أرادب قمح • هذا وعطفه على سكان الحرمين الشريفين سطر فى صحائفه وكان أول نزول قمح الدشيشة للمدينة المنورة مع الحاج فى شوال سنة ٨٨٩ هـ •

مصادراته :

لم يخل عصر السلطان قايتباى من المصادرات ومهما قيل فيها فهى أقل منها فى عهود من سبقه ومن تلاه من سلاطين المماليك وكان لكل منها ما يبرره • بعد أن تمت له السلطنة أمر بتقييد خاير بك فقيد هو وابن العينى ووضعا فى مكان بالقرب من القصر الكبير ، وكان هذا أول حكم صدر منه • ثم أخذ فى مصادرتهما فطلب من خاير بك ستين ألف دينار عدا خيوله

وسلاحه وغير ذلك ، ومن ابن العينى مائتى ألف دينار عدا خيوله وسلاحه وغير ذلك ، كما أمر باخراج خاير بك من القاهرة فخرج تحت جنح الليل وهو مقيد راكب على فرس والأوجاقى (٣٤) معه وفى يده خنجر ، فلما وصل الى شاطىء البحر نزل فى الحراقة وأقلعت به حتى وصل الى ثغر الاسكندرية فسجن بها . وأما ابن العينى فأحضر بين يدى السلطان فى الدهيشة وأنبه لتلكئه فى سداد ما قرر عليه من المال فبطحه على الأرض وضربه بيديه حتى شق كعبه وأدمى فأغمى عليه ، فشفع فيه بعض الأمراء وتوجهوا به الى طبقة الزمام فأقام بها أياما ثم تسلمه الأمير يشبك الدوادار فنزل الى داره ليوفى ما قرر عليه من المال . وجدير بالذكر أن ابن العينى كان يحاكى أولاد السلاطين حتى أطلق عليه عزيز مصر . ثم أفرج عنه السلطان بشفاعة الأمير يشبك الدوادار والتزم ابن العينى بأن يرد فى كل شهر عشرين ألف دينار من الذهب النقد فكان جملة ما سدده للخزائن الشريفة من الذهب النقد مائة وتسعة وستين ألف دينار وذلك غير غلاله وخيوله وجماله ورزقه واقطاعاته ومراكبه ومماليكه وقدرت قيمته بمائة ألف دينار . وأما زين الدين الاستادار فقد قبض عليه السلطان وكان بطالا (بلا عمل) مقيما فى داره ، وعندما مثل بين يديه وبخه بالكلام ثم أمر بضربه بين

---

(٣٤) **الأوجاقى** : الذى يتولى أمور الخيل للتسيير والرياضة .

يديه فضرب ضربا مبرحا حتى أوشك على الهلاك ثم سجنه بالبرج ـ بالقلعة ، ولما علم السلطان بموته لم يصدق وأمر باحضاره بين يديه فكشف وجهه ورفسه برجله ثم أمر بحمله الى داره ليغسلوه ويدفنوه فحمل من القلعة الى داره ، وكان بينه وبين السلطان عداوة قديمة منذ أن كان السلطان جنديا ، ولما تسلطن أخذ يثأر منه ، وكان يظن أن مع زين الدين مالا كثيرا فصادره وعاقبه وطلب منه المال فلما عجز عن دفعه سجنه حتى مات تحت العقوبة • وأما جلال الدين عبد الرحمن بن سويد فعوقب عقابا شديدا بسبب الأوقاف التى باعها وكانت موقوفة على مدرسة جده ، وباع ما يملك ليسدد ما عليه من ديون •

لما تغير خاطر السلطان على برهان الدين النابلسى وكيل بيت المال قبض عليه وسلمه للأمير يشبك الدوادار ليستخلص منه الأموال ، وظل يشبك يعاقبه حتى أخذ منه بعضها ، وقد تفنن فى تعذيبه ، وقيل انه ضربه نحوا من ألفى وستمائة عصاه وخلع أضراسه ودقهم فى رأسه حتى مات ، ويبدو أن ذلك العذاب الذى حاق به لم يكن الا من نقمة الناس عليه اذ أنه أقحم نفسه فى أمور السلطنة وظلم وتعدى حدوده ولم يقدر عاقبه أفعاله السيئة فأخذ منا لجانب الذى أمن اليه بعد أن عادى جميع الناس بمصر والشام •

وأما المرأة فلم تنج من مصادرات السلطان ومن ذلك ما حدث للست سادة والدة القاضى ناظر الخاص يوسف بن كاتب جكم التى طلب منها السلطان مالا لاعداد الحملة لحرب شاه سوار ولما أظهرت العجز أقسم السلطان أنه لن يأخذ منها أقل من ماية وخمسين ألف دينار نقدا على ألا تبيع شيئا مما تملك ولم يقبل شفاعة أحد من الأمراء فيها ، ووفت ما قرر عليها فى عدة أشهر ولما مثلت بين يدى السلطان قام لها وعظمها وخلع عليها .

تنظيمات :

اعتاد السلطان أن ينظر فى الشكاوى بنفسه وكان يجلس يومين فى الأسبوع بلا انقطاع وكانت له مواقف حازمة سوى فيها بين الأمير وغيره ، ولما كثرت عليه الشكاوى تقرر الا تقدم الشكاوى للسلطان مباشرة حتى يمنع ذلك السيل العرم من الشكاوى والتى لم يتسم معظمها بطابع الجد حتى أن امرأة شكت زوجها للسلطان لأنه وطىء جارية فى ملكه فاشتدت بها الغيرة .

ويبدو أن رءوس النوب والنقباء (٣٥) بأبواب الحكام كانوا يغالون فيما يأخذونه من أموال فأمر السلطان القاضى كاتب السر ابن مزهر بأن يجمعهم ويأخذ عليهم التعهدات بألا يأخذوا

(٣٥) **النقباء** : يؤدى صاحبها أعمالا صغيرة لسيدة .

من الخصوم أكثر من نصفين فضة لكل نقيب تنفيذا لمرسوم السلطان فجمعهم وأخذ عليهم المواثيق ولكن ذلك لم يستمر طويلا وعادوا الى ما كانوا عليه .

المساواة :

دأب السلطان عند نظر الشكاوى على المساواة بين الخصوم لا فرق فى ذلك بين أمراء الدولة وعامة الشعب ، فعند ما نزل الى الاسطبل وجلس ليحكم به وجلس كاتب السر بين يديه على الدكة لقراءة القصص ، جاء شخص وشكى يشبك الدوادار وكان واقفا بين يدى السلطان فأمره السلطان أن ينزل ويقف بازاء خصمه حتى تتم الدعوى وحدث مثل ذلك عندما ادعى شخص آخر على جانى بك .

وقد عمت هذه المساواة بين رعايا الدولة المملوكية فاذا تعذر وجود من يلى وظيفة معينة فى مصر اتجه السلطان الى الشام يبحث فيها عمن يلى تلك الوظيفة فلما توفى قاضى القضاه الحنفى شمس الدين الامشاطى فى رمضان سنة ٨٨٦ ، ولم يوجد فى مصر من هو كفء لهذه الوظيفة ، استدعى السلطان من الشام شرف الدين موسى بن عيد ليتولى هذه الوظيفة وظل المنصب شاغرا حتى حضر ابن عيد .

وحتى أقاربه وأقرب الناس اليه لم يتهاون معهم بل

أخذهم بالشدة فعندما امتنع تمراز الشمسى أحـد أقاربه عن السفر عندما عينه نائبا للشام ونزل من القلعة غاضبـا ، أمره السلطان بالخروج الى مكة منفيا وأصر على رأيه الى أن توسط للصفح عنه لدى السلطان الأتابكى أزبك ، ولم يقبل السلطان الشفاعة الا بعد جهد كبير .

وحتى أولئك الذين كانت فى نفسه منهم وحشة ، وجاءت الفرصة للانتقام منهم لم يغتنم الفرصة للبطش بهم بل أنصفهم عندما ظهر الحق فى جانبهم ، وأمر بعقاب المدعين عليهم ، فعندما ادعى الفقيه شـهاب الدين القلقيلى على الشيخ عبد البربن الشحنة بأنه سلط عليه غلمانه وعبيده وأنهم ضربوه ضربا مبرحا وذكر أن عبد البر جاهل لا يحسن قراءة الفاتحة وأن الصـلاة خلفه لا تصح ، فمال السلطان مع القلقيلى لما كان فى نفسه من عبد البرمنذ فتنة ابن الفارض اذ كان رأس المتعصبين عليه ، وأمر السلطان باحضار عبد البر ومشايخ القراء الذين أثنوا على قراءة عبد البر ، وعندئذ غضب السلطان على القلقيلى خاصـة وأنه حلف برأس السـلطان أن عبد البر لا يحسن قـراءة الفاتحة ، ولما تبين كذبه أمر السلطان بضربه فضرب بين يديه وليت الأمر اقتصر على ذلك بل أرسـله الى القـاضى المالكى ليطبق عليه ما يقتضيه الشرع .

وأما ارجاع الحقوق الى أصحابها فأمر لا يقبل المناقشة، بل

كان يصر عليه مهما كانت شخصية الخصم ، فعندما جاء الشهابى أحمد بن أسنبغا الطيارى بقصة الى السلطان يشكو فيها من قانصوه خمسمائة الذى اعتدى عليه بفتح باب من عنده بغير حق شرعى وقطع له عدة أشجار ولما سمع السلطان ذلك لام قانصوه خمسمائة وأمر بسد الباب ودفع تعويض عن قيمة الأشجار التى قطعها .

الردع :

على الرغم مما تميز به السلطان قايتباى من طيبة القلب ، الا أنه لم يتهاون البتة فى الضرب على يد العابثين والمفسدين والمنحرفين والمستغلين ، حتى ولو كانوا من القضاة أو رجال الدولة أو من المقربين اليه . وكان السلطان مهيب الجانب يخشاه الصديق قبل العدو ، وكثيرا ما تخلص بعض الناس من حياتهم بالموت خوفا من لقاء السلطان ورهبة مما قد يحيق بهم وقد امتلأ عهده بالكثير من القصص المؤيدة لذلك .

فعندما كثرت الشكاوى من قاضى القضاة الحنفى شمس الدين العزى بسبب أوقاف الحنفية أمر السلطان بعقد مجلس يحضره قضاة القضاة الثلاثة لعمل حساب أوقاف الحنفية، وقد أهين قاضى القضاة فى المجلس بسبب تصرفاته . وعندما كثرت الشكاوى من محمد بن اسماعيل قاضى الواحات أمر

السلطان باحضاره ، فلما مثل بين يديه جرده من ملابسه وضربه بالمقارع ثم طافوا به القاهرة على حمار ثم سجنه بسجن المقشرة، فمات بعد أيام ، وكان من كبار المفسدين فى الأرض ، ولم ينج من غضبة الشعب حتى بعد موته فثار عليه بعض من أهل الواحات ورجموه بالحجارة وهو فى النعش وأرادوا حرقه بالنار ولم يتمكنوا من دفنه الا بعد جهد كبير • وعندما شكت امرأة من بدر الدين القرافى أحد نواب المالكية ، أحضره السلطان وبطحه وضربه ضربا مؤلما وغرم مالا بعد عدة مجالس عقدت بينه وبين المرأة التى شكته • ولم ينج القاضى شهاب الدين القمتى المالكى من العزل عندما أصدر حكما جائرا • وعندما صعد القضاه للقلعة فى رجب سنة ٨٩٢ هـ لتهنئة السلطان بالشهر أمر بالقبض على رجال القاضى الشافعى زين الدين زكريا ووكل بهم من يقوم بعمل حساب الأوقاف معهم واستمروا محجوزين مدة ثلاث سنوات • وضرب السلطان شهاب الدين القصيف من نواب الحنفية وأمر بنفيه الى الواحات وقبل السلطان الشفاعة فيه وكتب عليه ميثاقا « بأن لا ينوب فى الحكم أبدا ولا يسعى فى ذلك ولا يشهد فى شىء من الأمور الشرعية » هذا وقد عزل السلطان قاضى القضاه محب الدين بن الشحنه وأصدر الأمر لعمل حساب أوقاف الحنفية وسبب ذلك ما حدث فى المجلس الذى كان بين خوند شقرا وبين ابنة أختها خوند آسية بسبب

وقف الظاهر برقوق وتعصب ابن الشحنة لخوند شقرا فغضب السلطان عليه وعزل وكانت هذه آخر ولاية له فى القضاء واستمر محجوزا بسبب أوقاف الحنفية الى أن شفع فيه الأتابكى أزبك فنقل الى بيت كاتب السر حتى يتم حساب تلك الأوقاف .

ولم يسلم من العقاب على بن قمنى رأس نوبة النقباء والذى خدم السلطان عندما كان رأس نوبة النوب وذلك عندما استبد وطغى ومات تحت العقوبة . واما حمور رأس المفسدين فأمر السلطان بقتله وأنزل من القلعة وهو مسمر على لعبة من الخشب غريبة الهيئة تجر بالعجل ولها حركات تدور بها وقتل عند بركة الفيل وأراح الله الناس من شره ، كما أمر بقتل شخص يقال له أحمد الدنف الزينى وكان أستاذا فى فن السرقة ، وأمر السلطان بقتل كاشف البحيرة خشقدم وقتل معه شخص من الكتاب يقال له ابن الطواب وذلك لأنهما لم يقوما بدفع المال الذى تجمد عليهما . وتغير خاطر السلطان على الجمالى يوسف كاتب المماليك وأخذ منه تسعة آلاف دينار وذهب عقله من هول ما جرى له واعتراه الجنون . ولما كثرت الشكاوى ضد خضر بك من مال باى نائب القدس أمر السلطان باستدعائه فلما مثل بين يديه أمر بضربه فضرب وسجن حتى سدد ما قرر عليه من المال وعزل من نيابة القدس . وأما أبو الفتح المنوفى نائب جده والذى كان فى خدمة السلطان حين كان شاد الشرابخاناه فقد

أمر بالقبض عليه وأودعه البيمارستان مع المجانين وهو عريان مكشوف الرأس وفى عنقه الحديد • وأمر السلطان بابعاد جماعة من نواب الشافعية ونواب الحنفية وأمر الا يسجن أحد الا باذن من القاضى الشافعى والقاضى الحنفى • وأما مجد الدين بن البقرى فقد أمر بسجنه فى سجن المقشرة ما يزيد على ست سنوات ، كرهه السلطان لما أظهره من شماتة عندما قتل يشبك الدوادار وأمر بقتله فقتل عند بركة الكلاب ثم حمل الى تربة عمه حيث دفن فيها •

وعندما بلغ محب الدين أبو الطيب الأسيوطى تغير خاطر السلطان عليه وعزمه على عقابه توجه الى مقياس النيل وألقى بنفسه فى البحر عمدا فغرق ومات وقد هانت عليه نفسه لما تخيل ما سوف يحل به •

وأما الزنا واللواط فقد حاربهما السلطان حربا شعواء ولم يقبل فى مرتكبيها أية شفاعة بل اشتد الى درجة القتل والخصى وليس بخاف أن السلطان نفسه لم يزن ولم يلط وأنه لم يتزوج سوى زوجة واحدة ولم يكن له سوى سرية واحدة •

السلطان وفتنة سيدى عمر بن الفارض :

كان للسلطان قايتباى اعتقاد تام فى المشايخ والأولياء والصالحين سواء من انتقل منهم الى الرفيق الأعلى أو من كان

على قيد الحياة ، وكان له فى الشيخ عبد القادر الدشطوطى غاية الاعتقاد وكان يتولى ارشاده كلما مر عليه وكان السلطان يمتثل أمره كما كان يقبل يده • وظلت منزلة الشيخ عبد القادر الدشطوطى عند السلاطين بعد قايتباى وقد أنشأ ابنه محمد وأمه خوند أصلباى مسجدا أو قناطر بالفيوم باشارته ، كما أن السلطان الغورى أعفى بعض الجهات بالفيوم والقاهرة من الضرائب باشارته كذلك ، وأنشأ له مسجدا دفن فيه مازال قائما بحى باب الشعرية حتى الآن • وقد قطع بعض المؤرخين بولاية قايتباى وصلاحه وأضافوا أن البعض بشره بالسلطنة قبل أن يليها بزمن طويل وأنه كان يطلب اليهم اخفاء ذلك حتى لا يتعرضوا واياه الى عقاب السلاطين القائمين بالأمر • وكان للسلطان قايتباى أوراد وتهجد ،يعيب على الشعراء مدحه متمنيا لو وجهوا ذلك لمدح الرسول الكريم ، ولما زار الحجاز والقدس عم تلك الأقطار الخير وأنشأ من ماله الخاص بالقاهرة منشآت للاستغلال ليصرف من ريعها على فقراء المدينة • ولما ثار الجدل بين العلماء بسبب قصائد سيدى عمر بن الفارض رضى الله عنه ، ألقى السلطان بثقله فى المسألة وعمل على حسم الفتنة والخلاف وكان متعصبا لابن الفارض • ففى محرم سنة ٨٧٥ هـ كثر الجدل بين العلماء بالقاهرة فى أمر الشيخ العارف بالله تعالى سيدى عمر بن الفارض ، وقد تعصب عليه جماعة من العلماء

بسبب أبيات قالها فى قصيدته التائية فاعترضـوا عليه فى ذلك وصرحوا بفسقه وتكفيره ونسـبوه الى من يقـول بالحلول والاتحاد وحاشاه من ذلك . وكان على رأس من تعصب عـلى الشيخ عمر بن الفارض برهان الدين البقاعى وقاضى القضـاة محب الدين ابن الشحنه وولده عبد البر وقاضى القضاة عز الدين الحنبلى ونور الدين المحلى وتبعهم جماعة من طلبة العلم ينادون بتكفيره ، وتعصب له من العلماء الشيخ محيى الدين الكافيجى الحنفى والشيخ قاسم الحنفى والشيخ بدر الدين بن الغـرسى والشيخ نجم الدين بن يحيى بن حجى والشيخ جلال الدين الأسيوطى والشيخ زكريا وتاج الدين بن شرف . ولما استفحل الأمر كتبت الفتاوى فى هذه المسألة التى ظاهرها الخروج عن قواعد الشرع فكتب الشيخ محيى الدين الكافيجى على هذا السؤال ماهـو أحسن عبارة وأقرب الى الانصـاف ، وألف جلال الدين الأسيوطى فى ذلك كتابا سماه قمـع المعارض فى الرد على بن الفارض والف البدرى بن الغرسى فى ذلك كتابا شافيا فى هـذا المعنى واضحا فى الرد على من تعرض لابن الفارض وصنف بعض العلماء كتابا سماه دريات الأفاعى فى الرد على البقاعى ووقعت مشاحنات بين العلماء وهجوا البقاعي وابن الشحنة وغيرهم ممن تعصب على ابن الفارض وصـاروا يكتبون الأوراق بهجـو المعترضين ويلصقونها فى مزاره . وتعصب لابن الفارض بعض

الأمراء والسلطان الذى أمر كاتب السر ابن مزهر بأن يكتب سؤالا الى الشيخ زين الدين زكريا الشافعى نصه :

« ما يقول الشيخ الامام العالم العلامة البحر الفهامة زكريا الانصارى الشافعى نفع الله المسلمين به عن من قال يكفر سيدنا ومولانا الشيخ عارف بالله عمر بن الفارض تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه فيمن زعم أن عقيدته فاسدة بناء على فهمه من كلامه فى مواضع مرجعها الى اطلاقات معلومة عن السادة الصوفية باصطلاح مخاطبهم لا محذور فيها شرعا ، فهل يحمل كلام هذا العارف على اصطلاح أهل طريقته أم على اصطلاح أهل ملة غير الاسلام ، فما الجواب عن ذلك أفتونا مأجورين » ثم بعث هذا السؤال الى الشيخ زكريا فامتنع عن الكتابة عليه وبعد الحاح كتب يقول :

« يحمل كلام هذا العارف رحمة الله عليه ونفع ببركاته على اصطلاح أهل طريقته بل هو ظاهر فيه عندهم اذ اللفظ المصطلح عليه حقيقة فى معناه الاصطلاحى مجاز فى غيره كما هو مقرر فى محله ولا ينظر الى ما يوهمه تعبيره فى بعض أبياته فى التائية فى القول بالحلول والاتحاد فانه ليس من ذلك فى شىء بقرينتى حاله ومقاله المنظوم فى تائيته من أبيات القصيدة .

ولى من اتم الرؤيتين اشارة
تنزه عن رأى الحلول عقيدتى

وقد يصدر عن العارف بالله اذا استغرق فى بحر التوحيد والعرفان بحيث تضمحل ذاته وصفاته فى صفاته وتغيب عن كل ما سواه عبارات شعر بالحلول والاتحاد لقصور العبارة عن بيان حالته التى يرقى اليها كما قال جماعة من علماء الكلام ولكن ينبغى كتم تلك العبارات عن من لم يدركها فما كل قلب يصلح للسر ولا كل صدف ينطبق على الدر ولكل قوم مقال وما كل ما يعلم يقال وحق لمن لم يدركها عدم الطعن فيها كما قال بعضهم فى المعنى :

فاذا كنت بالمدارك غـــرا ثم أبصرت حـادقا لاتمارى
واذا لم تر الهلال فسـلم لأناس رأوه بالابصـــار

ولو ذاق المنكر ما ذاق هذا العارف لما أنكر عليه كما قال القـائل :

ولو يذوق عـاذلى صبابتى صـبا معى لكنـه ماذاقها

والحالة هذه والله يمنح بفضله ويمنع من يشاء بعدله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وكتبه زكريا بن محمد الانصارى الشافعى .

وبعد هذه الاجابة الشافية انتهى الاضطراب الذى ســاد البلاد بسبب المتعصبين على ابن الفارض والمتعصبين له .

رفع المظالم :

اصدر السلطان عدة مراسيم بالغاء المكوس فى أنحاء الامبراطورية المملوكية وكانت تلك المراسيم من الرخام أو الحجر تثبت عادة على أبواب المساجد وأبواب المدن وكانينص فيها على الاعفاء من المكوس والضرائب التى يرى السلطان الاعفاء منها ، كما ينص فيها على انزال العقاب على من لا يلتزم بتنفيذها أو يعود اليها ، وقد حفظت لنا الأيام عددا من تلك المراسيم التى تعتبر من وسائل الاعلام فى القرون الوسطى ، وكان ينادى فى انحاء البلاد بمضمون تلك المراسيم كذلك حتى تعم المعرفة بها وحتى لا يكون هناك عذر لمن لم يرها أو يعرف عنها شيئا . ولم يبق من هذه المراسيم فى مصر سوى مرسوم واحد مازال موجودا بالجامع العمرى بقوص وهو صادر عن الأمير يشبك الدوادار باعفاء بعض الرزق . أما الشطر الآسيوى من الامبراطورية المملوكية فمازال بدمشق مرسومان وبطرابلس أربعة مراسيم وبحلب تسعة مراسيم وفى الرملة مرسومان وفى بعلبك ستة مراسيم وفى القدس مرسوم وحماه ثلاثة مراسيم وفى حمص مرسوم واحد وكذا فى ديفركى بآسيا الصغرى وصدرت عدة مراسيم خاصة بالحجاز وان لم يصل الينا منها شىء فيما أعلم . ويبدو أن مثل تلك المراسيم كانت تصدر عن السلطان أو عن الولاة والمسئولين نتيجة لروح الاستياء والتذمر التى

كانت تظهر من الباعة والتجار والمتسببين • ومما أبطله السلطان عدة مكوس منها مكس قطيا (٣٦) ومكس الخشب والاطرون بالبحيرة وغير ذلك من المكوس بمصر وجده •

وعندما فرض على الأساكفة من قبل الدولة جلود وقرر على أساكفة بين القصرين وعلى أهل الصليبة الدرهم بمثله مرتين ، أذعن أساكفة بين القصرين ودفعوا ما طلب منهم ، وأما أساكفة الصليبة فقد أخذوا الجلود ووعدوا بوفاء ثمنها ولكنهم وقفوا للسلطان ليعرضوا عليه شكواهم وحال بينهم وبين السلطان خدام الحوش السلطانى ولكنهم لم ييأسوا واحتالوا لتوصيل شكواهم للسلطان وصعدوا الى أعلى الجبل المقابل للحوش السلطانى وكان يجلس فيه للأحكام واستغاثوا ، فسأل السلطان عن حالهم ولما علم بما فعله فيهم ابن غريب استشاط غضبا ، وهدأ يشبك الداودار من روعه وتقرر « لا يرمى عليهم شيئا وأن يعيدوا جميع ما أخذوه » وأرسلهم السلطان الى بيت الأمير يشبك حيث سويت مشكلتهم •

وأما تجار سوق الأخفاف فقد وقفوا للسلطان وكانوا قد قدموا له قصة ، وهو صاعد الى القلعة من الرماية ، وضمنوها أن الوزير ظلمهم ، وأنه كان مقررا عليهم فى كل شهر أربعمائة

---

(٣٦) **مكس قطيا** : المقصود به المكوس (الضرائب) التى كانت تحصل عند قطيا ، وهى قرية فى طريق مصر الى الشام ، فى وسط الرمل قرب الفرما •

درهم فلوسا (٣٧) فصار يأخذها ثلاثة آلاف ، وأمر السلطان أن يرفع عنهم ذلك الظلم وتوجهوا لابن غريب ولكنه رفض وقررها ألفا وخمسمائة درهم ، فوقفوا مرة أخرى فقرر السلطان الغاء مكس الأخفاف .

اضطرت الظروف الملحة لاعداد الحملة الحربية لمحاربة شاه سوار الخارج على الطاعة الى أخذ الأموال من الناس وقطع بعض المرتبات ، ولكن السلطان أعاد الى بعض الناس ما كان أخذه منهم وقد تعجب الناس سيما وأن هذا الصنيع صدر من السلطان تلقائيا . والواقع أن المظالم فى عهد قايتباى كانت بسيطة وأنه اذا ما ترامى الى سمعه حدوث مظلمة بادر الى رفعها .

مجالس السلطان :

تعددت مجالس السلطان ، وكان جلها فى أوائل الشهور العربية عندما كان يصعد قضاة القضاة الأربعة للتهنئة بالشهر الجديد ، وهناك بعض مجالس كان السلطان يطلب عقدها لظروف طارئة ، وكان السلطان يعرض الرأى بنفسه أو عن طريق كاتب السر ومعظم مجالسه كانت لأخذ موافقة القضاة

(٣٧) الفلوس : عملة صغيرة .

على ما يريده السلطان مثل جمع المال لنفقات الحملات الحربية أو للنظر فى شئون الدولة لا سيما تصرفات القضاة فيما يختص بالأحكام والأوقاف وكذا أخذ الفتاوى وتنفيذ أحكام الشرع أو لمناقشة مسائل بعينها لوضع حل حاسم لها . وقد خذل السلطان فى بعض تلك المجالس فلم يحظ رأيه بالتأييد ، ومثل تلك المجالس كانت تنفض على مضض من السلطان وكثيرا ما كان يكتم شعوره . ويمكن أن يقال ان مثل هذه المجالس كانت مجالس شورى . وفيما يلى عرض لبعض تلك المجالس وما دار فيها .

كانت أولى هذه المجالس فى ذى القعدة سنة ٨٧٢ هـ عندما وصلت الأخبار للسلطان بهزيمة جيشه على يد شاه سوار الذى زاد جيشه قوة بما غنمه من خيول وسلاح من جيش السلطان والذى عزم الزحف على حلب ، فأمر بعقد مجلس بالقلعة حضره الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة وحضر شيخ الاسلام أمين الدين يحيى الأقصرائى وجماعة من مشايخ العلماء وكافة الأمراء وكان المجلس بالحوش السلطانى بقلعة الجبل ، فلما اكتمل المجلس قام القاضى كاتب السر أبو بكر بن مزهر فتكلم عن لسان السلطان ووجه الخطاب الى الخليفة والقضاة ومشايخ العلم قائلا : ان المال الموجود ببيت المال فى نقص كبير وأن سوار تطاول على البلاد وقتل الرعية وعاث فى الأرض فسادا

وأن الأمر يحتم سرعة ارسال جيش لقتاله ليحمى البلاد وأن هذا الجيش محتاج الى نفقة وأن بيت المال خال ولما كان لدى كثير من الناس فائض كبير وأن الأوقاف كثرت على الجوامع والمساجد وأن رغبة السلطان أن يبقى لهم ما يقوم بالشعائر فقط والباقى يوضع فى الذخيرة للانفاق منه على الحرب • وقد مال الخليفة والقضاة الى ذلك الرأى ثم حضر شيخ الاسلام وكان قد تأخر عن الحضور فأرسل السلطان من يستدعيه ، فلما حضر أعاد كاتب السر ما سبق أن قاله فى أول المجلس ، أنكر شيخ الاسلام هذا الكلام وصرح على مسمع من جميع الحاضرين بهذا المجلس بأنه « لا يحل للسلطان أخذ أموال الناس الا بوجه شرعى واذا نفد جميع ما فى بيت المال ينظر الى ما فى أيدى الأمراء والجند وحلى النساء فيأخذ منه ما يحتاج اليه واذا لم يف بالحاجة ففى ذلك الوقت ينظر فى المهم ان كان من الضرورى فى الدفع عن المسلمين ، حل ذلك بشرائط مقدرة وهذا هو دين الله تعالى ، ان سمعت أجرك الله على ذلك وان لم تسمع فافعل ما شئت فانا نخشى من الله تعالى أن يسألنا يوم القيامة ويقول لنا لم لم تنهوه عن ذلك وتوضحوا له الحق ، ولكن السلطان اذا أراد أن يفعل شيئا يخالف الشرع لماذا يجمعنا ولكن بدعوة فقير صادق يكفيكم الله مئونة هذا الأمر كله » ثم قام شيخ الاسلام « وأبجيه * » السلطان وانفض المجلس •

* أى أخذ السلطان •

وعندما صعد القضاة فى المحرم سنة ٨٧٣ لتهنئة السلطان بالعام الجديد أمر السلطان بعقد مجلس لشراء مماليك الظاهر خشقدم فاشترى من المماليك الكتابية نحوا من خمسمائة مملوك بعشرة آلاف درهم لكل منهم وذلك بعد أن عين وصيا على الظاهر خشقدم وهؤلاء المماليك هم الذين عرفوا بالأشرفية .

وفى مستهل ربيع الآخر سنة ٨٧٣ هـ صعد القضاة لتهنئة السلطان بالشهر فتكلم معهم فى المجلس فى قطع الجامكية (مرتبات) العجزة من الجند والنساء وأخذ يشكو للقضاه من نقص المال فى الديوان وخراب البلاد وصار يدعو على نفسه بالموت حتى يستريح مما هو فيه من التعب وطال الكلام فى المجلس وانتهى بلا طائل وانصرف القضاة ونفذ السلطان رأيه عندما فرق الجامكية فى هذا الشهر بنفسه وجلس على الدكة وقطع عدة جوامك من العجزة والجند والأيتام والنساء وكان السلطان أول من جلس من الملوك لتفرقة الجامكية .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٧٥ هـ صعد القضاة الى القلعة للتهنئة بالشهر وعندما أرادوا الانصراف تكلم معهم السلطان عن انحراف محراب جامع أحمد بن طولون عن جهة القبلة فقال كاتب السر هذا الجامع تحت نظر قاضى القضاة الشافعى ، فقال القاضى ، ينبغى أن يتغير هذا المحراب ويجدد غيره الى جهة القبلة ويكتب عليه اسم السلطان ، ولكن شيئا من ذلك لم يتم .

وفى شهر ربيع الآخر سنة ٨٧٦ هـ صعد القضـاة الأربعة وشيخ الاسلام لتهنئة السلطان بالشهر وكان المؤرخ الجوهرى حاضرا مع النواب ، ووقف شخص للسلطان يشكو القـاضى الشافعى بسبب خان السبيل الواقع تحت نظره وأنهى أن الخان مسجد وأن الجمالين جعلوه مخزنا لمتاع الجمال وأنهم يجهزون فيه حاجياتهم وعندما منعهم من ذلك تعصب عليه جماعة وأحضروا له رسلا من عند القاضى الشافعى ونائبه ، وأخذ يشكو وقال : « أطلع الى الله » ، وأراد القاضى المالكى أن يطبق عليه الشرع بسبب ذلك ولكن زملاءه منعـوه من ذلك خشـية أن يقول السلطان انهم تعصبوا عليه . حـدث كل ذلك بجامع القلعة ، ولما طلبهم السـلطان دخلوا الى الحوش السـلطانى وهنؤوه وجلسوا فقـال ابن مزهر كاتب السر لقاضى الحنفية : عرفت السلطان عن وقف بنت يشبك أن اقبردى أثر عليكم حتى قررتموه نائبا عنكم وأنه لم يصرف لأحد من المستحقين شـيئا ، ولم يطلعكم على حساب الوقف ، وأن سيدى عبد البر الذى توجه الى حلب لم يتكلم على الوقف المذكور ، فلما سمع السلطان ذلك احتجز أقبردى وأمر بتجهيزه اليكم لتنظروا فى مصلحة المستحقين وتعمروا التربة من الفائض .

وعندما وقف حفدة السلطان اينال للسلطان فى ٢١ جمادى

الأولى سنة ٨٧٦ هـ هم وأرباب الوظائف بمدرسة جدهم (٣٨) وأظهر كل منهم فتاوى بخط الشيخ أمين الدين الاقصرائى والشيخ محيى الدين الكافيجى ، والشيخ قاسم الحنفى ، أمر السلطان كاتب السر ابن مزهر أن يحضر قضاة القضاة والمشايخ الذين افتوا بينهم الى مجلس السلطان فى الخامس والعشرين من الشهر وفى اليوم المحدد صعد قضاة القضاة الثلاثة ونوابهم ، وكان الجوهرى المؤرخ حاضرا وحضر اثنان من نواب الحنفية ، والشيخ أمين الدين الأقصرائى والشيخ قاسم وأتباعهم ، وجلسوا بالحوش السلطانى بالمصطبة الجديدة التى أنشأها السلطان فى آخره . وجلس الشيخ أمين الدين تحت المالكى ، والشيخ قاسم تحته وجلس من يسار السلطان القاضى الحنفى وتحته الشيخ بدر الدين بن القطان ، وتحته الخطيب الحنبلى والشيخ خير الدين الشنسى ، وبقية الناس خلفهم ، وامتلأت المصطبة من القضاة ونوابهم والفقهاء خصوصا أتباع الشيخ أمين الدين ، وأبطأ الشيخ محيى الدين الكافيجى وطال انتظاره فأرسل اليه السلطان رسولا ، وسأل السلطان الحاضرين عن فتواهم فقالوا : الحق معنا ونحن أفتينا بالمذهب وصار أتباعهم يقولون الكافيجى غلب وهرب .

---

(٣٨) المقصود بها مدرسة وجامع السلطان اينال ، هذا ومازالت تلك المجموعة باقية بالقرافة الشرقية (جبانة الغفير بالعباسية) .

وتكلم الشيخ بدر الدين بن القطان مع السلطان بأن متحصل الخروبية (٣٩) التى يدرس بها لا يفى الثلث وأن الجابى يسقط وطلب مرسوم السلطان لكاتب السر أن يرسل مرسوما للجابى الا يطالب الا بمقتضى الشرع ، فأمر السلطان بذلك . ثم سأل السلطان عن الناظر على هذه المدرسة فقال ابن القطان : القاضى الشافعى ، فالتفت السلطان اليه ، وقال له : أخربت الأوقاف مرتين فصار الشافعى « فى هيئة الأموات » على حد قول الجوهرى المؤرخ وأخذ ابن مزهر يتلطف بالسلطان حتى هدأ غضبه .

حضر الكافيجى ومعه ستة من طلبته واستقبله الدوادار الثانى وساعده وحمله من ابطه حتى وصل به الى السلطان ، فقام له كل من فى المجلس وعانقه السلطان وأكرمه فجلس تحت قاضى الحنفية المحب بن الشحنه ، فسأله السلطان أنت أفتيت فى الادخال أو فى الاخراج ، قال : لا ، انما سئلت عن لفظ من وكلما فأفتيت بانهما عام (*) . فقال جماعة الشيخ أمين الدين الاقصرائى مرحبا بالوفاق ، اقرءوا الفاتحة وعزموا على الانصراف

---

(٣٩) المقصود بها احدى المدارس الخروبية وكان عددهما ثلاثا .

* المقصود بذلك الادخال والاخراج فى الوقف لمن شاء وكلما أراد كما هو واضح من سياق الحديث الذى أورده الجوهرى ورأينا أن نثبته بنصه اذ لم يرد فى ابن اياس ويلاحظ أن النص متفش فيه العامية .

فقال السلطان : الى أين تذهبون ؟ ثم التفت الى الشيخ محيى الدين وسأله ، قولك هذا عام ؟ أولاد اينال يجوز ادخالهم واخراج غيرهم ؟ فقال : نعم . فالتفت، الى الشيخ أمين الدين وقال : لو أقمتم الى المغرب ، مافارقتكم ، ما الجواب عن ذلك ؟ فقال الشيخ قاسم وغيره من الحاضرين هذا خاص بأهل المدرسة ، فالتفت الشيخ محيى الدين للسلطان والداودار ولقاضى القضاة الحنفى : هذا الرجل يعنى قاسم الحنفى لا يعرف النحو ولا اللغة ولا الأصول ولا الفقه ، انما يعرف الحيل وهو محجور عليه فى الفتوى ، لأنه يأخذ عليها رشوة وهذا يسمى « فقى ماجن » وقد ألفت هذا الكتاب وأخرج كتابا فيما كان وقع بينه وبين الشيخ قاسم من الكلام قبل هذا ، وأعطاه للدوادار الذى أعطاه بدوره للشيخ قاسم ، فقال: أنا ما قصدته بشىء ، وأحضر كتاب الوقف وقرأه ابن مزهر بين يدى السلطان ، ومضمونه أن السلطان الظاهر جقمق وقف على مدرسة اينال وقفا ، وجعل النظر فيه لابن اينال وجعل له أن يدخل من شاء ويخرج من شاء كلما بدا له .. فقال السلطان هذا كتاب الوقف فما جوابكم عن ذلك. فقال الشيخ محيى الدين للشيخ أمين الدين أنت رجل مفتى وعالم وأبو حنيفة وأبو يوسف كانا يتناظران فى المسألة الواحدة مرات ، فلا أنت أبو حنيفة ولا أنا أبو يوسف ، هذا المقام من اى العموم ، فقال من عموم

الأفعال والا من عموم الأوقات والا من عموم الأقوال ؟ فقال : هذا من عموم الأوقات فتبسم الشيخ محيى الدين وقال : هذا العلم ! ، أهذا من عموم الأفعال فقال أنا قلت لا من عموم الأفعال وسمع السلطان وسمع الحاضرون • ثم قال له : هذا التخصيص الذى تدعونه من أى تخصيص ، فأجاب بشيء ، فقال هذا تقييد ، وفرق بين التقييد والتخصيص واستمر البحث الى أن قالوا : ان السلطان اذا أوقف وقفا من أراضى بيت المال لا يجوز له فيه شرط ولا زيادة ولا نقصان ولا ادخال ولا اخراج • فقال الشيخ محيى الدين هذا القول بخلاف ما يقول ، وأخرج كتابا قرأه ابن مزهر فقال الشيخ قاسم النقل بخلاف ذلك ، وهو فى قاضى خان — فقال قاضى القضاه الحنفى اطلعت على قاضى خان وليس فيه ذكر شرط ولا زيادة • قالوا : مفهومه ، قال الشيخ محيى الدين المفهوم عندنا ليس بحجة • فقالوا له : مفهوم الدليل لا مفهوم الكتابة فقال لهم : هذا محكم ، ثم قال الشيخ محيى الدين : هذا الوقف محكوم به ، والقاضى اذا حكم عندنا فى شيء ولو كان زورا ينفذ ظاهرا وباطنا ، فثار عليه جماعة الشيخ أمين الدين وصار الشيخ قاسم يقول له : أنت ما تعرف هذه المسألة فى كتاب بل لا وقفت عليها ، وصار علاء الدين الميمونى نائب الحنفى راكبا على كتفى الشيخ أمين الدين والشيخ قاسم وهو من خلفهما

وتكلم الشيخ محيى الدين بما يليق وطلب سماع كلمتين منه ولكن السلطان أمره بالسكوت فسكت وثارت ثائرة المجلس • وقام السلطان وأمرهم ألا ينصرفوا حتى ينتهوا من هذه المسألة وانصرف الشيخ أمين الدين والشيخ قاسم لقضاء حاجتهم ونسأل الشيخ عثمان المقسى ونسأل قاضى القضاة الحنفى عما قاله المشايخ من أن السلطان اذا اقطع أرضا من بيت المال هل له زيادة ونقص وادخال واخراج أم لا ؟ وأمره القاضى الحنفى بالدخول الى وسط الحلقة فجلس بجانب ابن مزهر والد الدوادار الثانى وصار يتكلم بصوت مرتفع بأن كلام الشيخ فى العموم لا منازع فيه • ثم حضر السلطان وطال النزاع • وعند ذلك سئل القاضى الحنفى عن وجه الحق مع من فى هذه القضية فقال مع الشيخ محيى الدين ولو كان الظاهر حيا ورأى أن ابن اينال أخرج وقفه ، ثم قيل لقاضى الحنيفة أنت امام المذهب احكم في هذه القضية فقال : اذا أفتى المفتيان ليس للقاضى أن يحكم حتى يتبين له الراجح من المرجوح ثم ان القاضى المالكى قال : اذا اختلف الأمر مذهبنا السلطان يقضى فى القضية فحولها القاضى الحنفى للمالكى ولكنه تنحى ثم قال القاضى الحنفى المصلحة أو مايشبه ذلك فى المصلحة فقال الشيخ أمين الدين مجيبا له هذه دورتكم •• فقال القاضى الحنفى ليس هذا بصحيح وليس لى فيه غرض وصدق القائلون على قول القاضى ثم التفت القاضى

الحنفى له ، وقال هذه فتاوي بخطك احداهما فيها جـــواز الادخال والاخراج* والأخرى بخلافها فأمره السـلطان بقراءتها فقرأهما القاضى الحنفى وتطور الموقف ثم سأل السلطان عمـا أخرج عن أهل المدرسة .. فقيل له عشرة آلاف درهم فى كل سنة وسأل عما أوقفه السلطان على أهل المدرسة أو عن قــوم يحضرون فقال بل عليهم وغالبهم لا يحضر وتكلم الجلالى المتكلم على المدرسة فقال له السلطان : أنت مدعى عليك .. ثم أمر السلطان أن يشترى للمدرسة من ماله رزقه تغل عشرة آلاف درهم فى كل سنة لوقفها عليهم عوضا عما أخرجه ابن اينــال لأولاده فقالوا بل يكون ذلك لأولاد ابن اينال فغضب السلطان من ذلك ، وقال : أنا لا أحب التعصب ، فقال القاضى الحنفى ينفذ قول السلطان ودعا القضاة للسلطان وانصرفوا فسلم الشيخ محيى الدين أولا وانصرف ثم سلم الجماعة حتى الجلالى فلكمه السلطان فى رأسه وقال له : أنت لا تخرج زكاه .

وفى رجب سنة ٨٧٦ هـ طلع القضاة الثلاثة ما عدا الحنبلى لخلو الوظيفة ومعهم الجـوهرى المؤرخ وكان طلوعهم تنفيذا لمرسوم السلطان باستدعائهم وللتهنئة بالشهر وجلسوا بالجامع ينتظرون السلطان واتفق أن القاضى فتح الدين السوهاجى طلب من امرأة كانت عنده فى مخاصمة أن تقف للسلطان وتسـأله أن يكون دعواها عنده فلم يتمالك السـلطان نفسه من الغضـب

وأخذ يعدد له مساوئه عندما رآه — ثم اجتمع بالقضاة ونوابهم بالحوش السلطانى وكان القضاة والنواب فى خوف من السلطان ورجوا الشيخ سراج الدين العيادى الشافعى أن يتحدث مع السلطان بشأنهم ، وقد تحدث مع السلطان ونصحه بعدم اهانة القضاة وذكره بما حدث فى عهد أسلافه وختم مجلسه مع السلطان قائلا ان الناس من باب المدرج (٤٠) الى آخر باب النصر (٤١) اجتمعوا لينظروا ما يفعل بالقضاة ومن ينزل منهم مجبورا ومن ينزل منهم مكسورا ثم دعا للسلطان وانصرف .
وأخذ ابن مزهر ينادى عليهم واحدا واحدا فلما نادى على القاضى فتح الدين السوهاجى غضب السلطان غضبا شديدا وقال له : أنت تعمل الحر عبدا والمسلم كافرا والحق باطلا وغضب أيضا على أبو بكر الابشيهى . ثم أخذ فى تأنيب ابن امام الشيخونية وسأله عن ابنه هل هو قاض ؟ فما وسعه الا الانكار . وسأل القاضى الحنفى عن من عمل كمال الدين بن الطرابلسى قاضيا ثم سب وعزل الطولونى السمين ، وقال لابن ظهيره عندما وقع نظره عليه : « أنت مباشر لص * حرامى » ، ولم يتعرض

---

(٤٠) **باب المدرج** : هو الباب الأصلى للقلعة من انشاء صلاح الدين الأيوبى ، ومازال قائما بجوار الباب الجديد الذى أنشاه محمد على والذى يدخل منه الآن للقلعة .

(٤١) **باب النصر** : أحد الأبواب الفاطمية للقاهرة .

* حافظنا على ألفاظ الجوهرى الذى كان يغلب على كتابته اللغة العامية .

للجوهرى المؤرخ كما ذكر ذلك عن نفسه . ولما رأى بدر الدين الدميرى كتكوت قال له : أنت أيضا قاضى فرد بأنه قاض منذ عشرين عاما فقال له كفاك : استرح ، ولم يتعرض للمالكية وذكر الحنفى للسلطان أنه سرعان ما يعزل أى نائب من نوابه اذا ما ترامى الى سمعه أى شيء عنه .

وفى العاشر من رجب سنة ٨٧٦ هـ وقف للسلطان شيخ يدعى عثمان الحطاب مقيم بالمدرسة السيفية (٤٢) المجاورة لسوق الجوار وادعى أن تغرى بردي المحمودى أخذ منها ايوانا جعله فى ريعه واصطبله وكان عثمان هـذا تقيا صالحا عمر بالمكان المذكور عدة أماكن وجدد به منبرا وعنده فقراء ويصل اليه البر من الأمراء ومن السلطان عندما كان أميرا وليس للمدرسة كتاب وقف أخذ المحمودى منها قطعة أرض مملوءة بالتراب باذن من قاضى القضاة ابن حجر وأخذ خطه باجارتها سنين وثبت ذلك . ثم استبدلها بخط قاضى القضـاه بدر الدين العينى وطلب من كاتب السر ابن مزهر ، ومن الدوادار الثانى السيفى تنبك أن ينظر فى هذه القضية بمقتضى الشرع ، ولما لم يحدث شـيئا وقف عثمان للسلطان الذى احتد لعدم تنفيذ أمره ويبدو أن ابن مزهر لم يفعل شيئا لأن أحـد نوابه أخ لمباشر الوقف وعـزم السلطان على التوجه بنفسه وذهب الى المكان وجلس السلطان

(٤٢) **المدرسة السيفية** : كان موقعها بأول شارع الصاغه .

بالمدرسة وطلب قضاة القضاة وحضر القضاة سريعا بدون نواب ولاكت ألسنة الناس القضاة فنسبهم البعض الى خراب الأوقاف أو بيعها ونسبهم البعض الآخر الى بيع ايوان المدرسة ولما وصل السلطان للمدرسة طلب كتاب الوقف وكان فى غاية الحده وأحضر كتاب الوقف والاجارة ، وأمر السلطان أن يدعى على وكيل القاضى الحنفى نور الدين الاينالى لوضع أيديهم على ايوان المدرسة السيفية وانشائهم مكانه ريعا واصطبلا وطالب بهدمه واعادته للمسجد ثم ركب السلطان وأمر بألا ينفض المجلس حتى تحل المسألة ولكن شيئا لم يتم بعد النزاع الذى دب بين المالكى والشيخ عثمان وخطيب المكان « وأمر السلطان بعقد مجلس فى الخامس عشر من الشهر فى المدرسة وثبت أن المكان من المدرسة وشهد بذلك الشيخ عز الدين السنباطى وأنه صلى فيه ودرس فيه وأنه اغتصب بغير حق وبلغ السلطان ذلك فأمر بالهدم ونفذ أمر السلطان » .

وفى شوال سنة ٨٧٦ هـ عقد مجلس حضره قضاة القضاة ونوابهم بالقلعة مع السلطان بسبب برهان الدين العجلونى الذى أحضر من القدس ، وقضيته أنه مستأجر من وكيلين عن أميرين بالشام قطعة أرض مدة معلومة وحكم بها حاكم شرعى ، ولما توجه لزراعتها وجدها مزروعة لغيره ، فأخذ من زراعها مقاسمة على عادة البلاد الشامية ، وجرت بينه وبين الأميرين

ووكيليهما مشاحنات انحاز فيها معهم ناظر القدس ونوابه وحضر الى القاهرة يرفع شكواه ، ولما طلب منه أن ينزل من المقعد ويسمع دعوى غريمه عليه خرج عن وعيه وتفوه بألفاظ مست السلطان ورجال الدولة وأمر السلطان بعقد مجلس وتم فيه مؤاخذة ابن العجلونى وحكم عليه بدفع المال المستحق ، وقام كاتب السر بدفع ما عليه من ماله •

وفى رجب سنة ٨٧٧ هـ صعد القضاة للتهنئة بالشهر وصعد معهم الشيخ أمين الدين الأقصوائى وتكلم السلطان مع الشيخ أمين الدين عن الأحوال مع حسن الطويل والحاجة الى المال وأجاب الشيخ أمين الدين بمثل ما تحدث به فى المجلس الذى سبق حرب شاه سوار ، ورفض طلب السلطان فى الحصول على المال •

وفى رجب سنة ٨٨٦ هـ صعد القضاة للتهنئة بالشهر فتحدث السلطان عن عدم تنفيذ حكم بعض نواب المالكية ولابن العينى فى تركة شرف الدين بن كاتب غريب على الرغم من مضى وقت كبير على ذلك وطال الحديث وغضب السلطان وأراد ابن مزهر أن يساعدهم فعزله السلطان وعزل القاضيين الشافعى والمالكى وعين السلطان بدلا منهما وظل ابن مزهر فى داره ١٨ يوما منفصلا عن كتابة السر ثم توسط له الأمراء لدى السلطان حتى أعاده الى وظيفته •

وفى المحرم سنة ٩٠٠ هـ صعد القضاة للتهنئة بالعام الجديد وصعد أيضا الشيخ جلال الدين الأسيوطى فلما جلس سأله السلطان عن أى سنة سنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفعلها ، فلم يجبه السيوطى وكان لدى السلطان كتاب يسمى حيرة الفقهاء ، ثم أجاب السيوطى ، بعد ذلك بأن السلطان قصد الأذان فانه سنة ولم يفعله والأصح أنه أذن فى وقت وأورد فى ذلك الحديث وعمل فى هذه المسألة كراسة مطولة .

رحلات السلطان :

تكرر نزول السلطان من القلعة ليلا ونهارا حتى خرج عن الحد على حد قول ابن اياس المؤرخ المعاصر ، وحتى ترك بعض المؤرخين ذكر ركوبه ونزوله من القلعة ولم يحصوا ذلك ، بعد أن كان ركوب السلطان فيما مضى نادرة تؤرخ فى التواريخ . وعاب ابن تغرى بردى المؤرخ الذى عاصر أوائل عهد ذلك السلطان ركوبه قائلا : « انه لم يبت أمرا ولا ردع مفسدا » ولم تظهر لزيارته للأقاليم التى زارها أية نتيجة بل شمل الخراب أغلب القرى من النهب والنفقات ، فضلا عن أخذ الهدايا ، وأن المفسدين لما علموا منه ذلك طمعوا فى الناس وزاد شرهم وقطعوا الطريق حتى أن بعضهم تجرأ بفعل تلك الأفعال بقرب خيام السلطان بل تعدى على بعض حواشيه وأعوانه ، وأضاف أن ذلك كان سببا فى طمع العرب حتى أن الناس

يئسوا من زوال ظلم العرب لهم . هذا بينما يعلل الجوهرى المؤرخ وأحد المعاصرين لذلك السلطان — بأن السلطان كان فى ضيق من فتنة شاه سوار وغيره وأنه أراد أن يظهر قوته حتى لا يطمع فيه أحد . لم يكن ركوب السلطان على كثرته للنزهة والترويح عن النفس فحسب ، بل كان غالبة لتفقد أحوال الدولة المترامية الأطراف ، من حدود الفرات الى بلاد النوبة بأقاليمها المختلفة ، بالاضافة الى تفقد أحوال الرعية ومعرفة آرائهم فى السلطان نفسه عندما كان ينزل اليهم متخفيا ، مما كان سببا فى رفع الكثير من المظالم ورد الحقوق لأصحابها ، هذا فضلا عما صحب تلك الرحلات من اقتراح مشروعات للتعمير ، والبر والمعروف ، صدرت أوامر السلطان بتنفيذها بل أخذ يتردد عليها ليباشر العمل فيها بنفسه ، مما كان له أكبر الأثر ، فى انجازها على الوجه الأكمل ومعظمها أعمال عم بها الخير أنحاء البلاد ، وفى أثناء تلك الجولات كان السلطان يعود المرضى من أمرائه وفى ذلك وفاء كبير لأولئك الذين عملوا معه ابان حكمه . ولم ير السلطان أى حرج فى النزول الى قواد حملاته العسكرية ليلقى اليهم بتعليماته وليودعهم ويشجعهم على الرغم من مخالفة ذلك لتقاليد المملكة .

كان أول ركوب للسلطان فى شعبان سنة ٨٧٢ هـ عندما نزل من القلعة الى الميدان ودار حول القلعة وعاد وطلع من باب السلسلة ، وفى هذا الشهر أيضا نزل السلطان مرتين أولاهما

الى القرافة وقد زار فيهـــا الأولياء وعاد من طريق قنـــاطر السباع (٤٣) ، ودخل دار سودون البرقى أحد أمرائه وعاده فى مرضه وأقام عنده ساعة ثم عاد الى القلعة ، وجدير بالذكر أن هذا المرض هو الذى مات بعده سودون بفترة قصيرة ، وثانيهما نزوله الى القرافة وزيارة ضريح الامامين الشافعى والليث بن سعد رضى الله عنهما ثم سار حتى وصل الى بركة الحبش (٤٤) ولعب هناك بالكرة ثم عاد الى القلعة ، وأعجبه ضرب تانى بك المعلم بالكرة فأنعم عليه .

وفى صفر سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى طراو العدوية على سبيل النزهة وأقام هناك الى آخر النهـــار ومدت له الأسمطة الحافلة .

وفى ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى خانقاه سرياقوس (٤٥) ونصـــبت له الخيـــام وأقام يومين

---

(٤٣) **قناطر السباع** : احدى القناطر التى كانت قائمة على الخليج بالقاهرة وكان موقعها بجوار جامع السيدة زينب وسميت بذلك الاسم لوجود شاره السلطان بيبرس وهى الأسد عليها .

(٤٤) **بركة الحبش** : كانت احدى متنزهات مصر ، وكانت تقع فى نهايـة القرافة ، ومازالت موجوده بناحية البساتين وان جف ماؤها ، وبها ماخذ سقاية أحمد بن طولون التى مازالت قائمة .

(٤٥) **خانقاه سرياقوس** : تطلق حاليا على ناحية الخانكة أحد مراكز محافظة القليوبية ، وقد نشات حول خانقاه (مكان المتصوفة) التى بناها الناصر محمد ابن قلاوون بالقرب من سماسم سرياقوس ، وقد زالت الخانقاه من الوجود ، وظل اسمها ـ وقد حرف ـ باقيا يطلق على تلك المدينة .

ومدت له الأسمطة الحافلة ، وحضر مع السلطان قاصد (مبعوث) حسن الطويل وقاصد ملك الهند ، وانشرح السلطان ثم عاد الى القلعة .

وفى شوال سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان الى قليوب ثم زار قناطر أبى المنجا (٤٦) ثم توجه الى تربة يشبك الدوادار ، فأقام بها الى بعد العصر ثم عاد الى القلعة .

وفى ذى القعدة سنة ٨٧٣ هـ نزل السلطان وتوجه الى طرا فاضافه فيها محمد بن البلاح فأقام الى آخر النهار وعاد .

وفى شهر ذى القعدة سنة ٨٧٣ هـ سافر السلطان على حين غفلة الى بحيرة تنيس وكان معه من الأمراء المقدمين برقوق الناصرى وبعض الأمراء العشرات وبعض العسكر ، واستمر عدة أيام وانقطع خبره عن الناس مدة . ولما قرب عيد الأضحى بعث بمرسوم يطلب فيه احضار قاضى القضاة الشافعى ولى الدين الأسيوطى ليصلى به صلاة العيد بفارسكور ، وخرج القاضى مسرعا وأخذ معه بعض هدايا من الحلوى للسلطان وذهب الى فارسكور حيث عيد مع السلطان وصلى به صلاة العيد . وقد قطع السلطان فى هذا العيد أضحية جماعة من أولاد الناس

(٤٦) **قناطر أبى المنجا** : مازالت هذه القناطر قائمة حتى الآن بالقرب من قرية ميت نامه بين شبرا وقليوب وقد أنشأها الظاهر بيبرس وجددها قايتباى ومازال نقش كليهما موجودا عليها حتى الآن .

والفقهاء والنساء حتى الخوندات وكثير من الجند • وفى هـذا العيد كان العسكر غائبا فى حرب شاه سوار والسلطان غائب عن القاهرة وكان الشعب فى حزن لفقد بعض ذويهم بسبب الطاعون بالاضافة الى قطع أضحية البعض وهى الأضحية التى كانت مرتبه فى الديوان السلطانى من قديم الزمان • واستمر السلطان غائبا نحوا من أربعين يوما وطاف عدة بلاد وقدمت اليه هدايا من مشايخ العربان وغيرهم من خيـول ومال وغير ذلك ، ثم عـاد السلطان الى بلبيس ، ولما وصل الى الخانقاه خرج أرباب الدولة لملاقاته وزينت القاهرة زينة حافلة لقدومه • وفى التاسع عشر من الشهر دخل السلطان القاهرة من باب النصر فى موكب حافل وقد حمل القبة والطير على رأسه المقر السيفى برقوق الناصرى أحد المقدمين وذلك لغياب الأتابك أزبك فى حرب شاه سوار ولاقاه الشعراء وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من عند مدرسة السلطان شعبان (٤٧) بالتبانة الى القلعة ونثرت عـلى رأسه خفايف الذهب والفضة وسار أمامه الأمراء الرءوس النوب من بين القصرين (٤٨) الى القلعة واصـطفت له المغنيـات على

(٤٧) **مدرسه السلطان شعبان** : مازالت المدرسة قائمة بشـارع التبانه بالدرب الأحمر ، وهى من انشاء السلطان شعبان لوالدته •

(٤٨) **بين القصرين** : مازال هذا الشـارع موجودا بحى الجمالية حتى الآن وقد أطلق على الفضاء الذى كان موجودا بين القصرية الفاطمية ثم أطلق على نفس الفضاء الذى كان واقعا بين قصرى بشتاك وبيسرى من أمراء المماليك •

الدكاكين واستمر فى ذلك الموكب حتى طلع القلعة . وفى أثناء تلك الرحلة جاءت الأخبار بان قاصد حسن بك ابن قرايلك سيصل الى القاهرة ومعه رأس أبو سعيد ولما وصل القاصد الى الريدانية أمر السلطان بأن يجلس بالاشرفية (٤٩) بخط العنبرانيين وأن ينظر موكب السلطان من هناك ورأى القاصد فعلا موكب السلطان . ولما وصل السلطان القلعة جلس على الدكة بالحوش السلطانى بالقلعة واستدعى ذلك القاصد والواقع أن السلطان أراد أن يظهر للقاصد ولسيده عظمة الدولة المملوكية وسلطانها ومواكبه . وفى أثناء الرحلة عاقب السلطان بعض العصاة من العربان المفسدين ولما عاد الى القاهرة نفذ ما وعد به الناس من تعيين برقوق الناصرى أحد المقدمين فى كشف التراب (٥٠) بالشرقية مضافا اليه كشف الدم (٥١) . وتوجه برقوق الى الشرقية وعين له نائبا فى كشف الدم ، وقد استطاع هو ونائبه أن يقمعا المفسدين ويضربون على العرب المفسدين بيد من حديد .

---

(٤٩) **الأشرفية** : المقصود بها مدرسة السلطان برسباى والتى مازالت موجوده فى أول شارع الصاغه وكان مكانها يعرف قديما باسم العنبرانيين .

(٥٠) **كشف التراب** : المسئول عن الجسور .

(٥١) **كشف الدم** : المسئول عن البحث عن القتلة .

وفى جمادى الأولى سنة ٨٧٤ هـ نزل السلطان الى الرماية ببركة الحاج (٥٢) وعاد من يومه وطلع من بين الترب .

وفى جمادى الآخرة سنة ٨٧٤ هـ نزل السلطان وتوجه الى خليج الزعفران على سبيل النزهة وأقام هناك ثلاثة أيام ثم عاد الى القلعة .

وفى ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ خلع السلطان الصوف ولبس البياض وابتدأ بضرب الكرة مع الأمراء وفى نفس الشهر انتهى ضرب الكرة وأضاف السلطان الأمراء .

وفى ربيع الأول سنة ٨٧٥ هـ ركب السلطان وتوجه الى طرا وفى نفس الشهر نزل الى المطرية ونصب هناك الخيام ونزل معه الأمراء وأقام هناك أياما على سبيل النزهة وبلغ ما صرف على الأسمطة التى أقيمت هناك ألف دينار .

وفى جمادى الآخرة سنة ٨٧٥ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى الخانكة ثم سار الى العكرشا وهو راكب الهجن ، ثم عاد الى القلعة بعد أيام .

وفى رجب سنة ٨٧٥ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى قناطر العشرة (٥٣) وأقام هناك سبعة أيام وتوجه الى الأهـرام

---

(٥٢) بركة الحاج : أول منازل الحج من جهة القاهرة .

(٥٣) قناطر العشره : كانت هذه القناطر بشارع الهرم الحالى .

سائرا على قدميه وحوله الأمراء ونصب له أشاير على رءوس الأهرام . ومدت هناك الأسمطة الحافلة ، وأخذ ابن رحاب المغنى وبقية المغنين ينشدون كل ليلة ، وظل السلطان هناك سبعة أيام توجه بعدها الى الفيوم . فلما دخلها زينت له ، وقدم له الكاشف ومشايخ العربان جملة هدايا ثم عاد الى القلعة بعد أن مكث فى هذه الأسفار نحوا من عشرين يوما .

وفى ذى القعدة سنة ٨٧٥ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى صقيل ، وقد أضافه فيها القاضى كريم الدين بن جلود كاتب المماليك ، فأقام هناك الى آخر النهار ثم عاد الى القلعة .

وفى المحرم سنة ٨٧٦ هـ نزل السلطان من القلعة وتوجه الى قرب شبين (٥٤) القصر وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، وفى أثناء سيره شب فرس الأتابكى أزبك على فرس السلطان فرفسه فجاءت الرفصة فى ساق السلطان فانكسرت فنزل بشبين وهو فى غاية الألم ، فأرسل يطلب محفة ليعود فيها الى القاهرة ، وعندما وصلت الأخبار الى القاهرة كثرت فيها الشائعات بسبب عودة السلطان فى محفة ، وكانت القاهرة قد زينت لقدوم السلطان ، فلما دخل القاهرة تحت جنح الليل هدت هذه الزينة ، وانطلقت الاشاعات ، حتى نزل الوالى ونادى بالأمان وسلامة السلطان ، وأمر باعادة الزينة كما كانت فزينت

---

(٥٤) **شبين القصر** : هى شبين القناطر الحالية .

القاهرة ثانية ، ثم خرج السلطان وجلس على الدكة وعلم على المراسيم وجهز المراسيم للبلاد الحلبية بسلامته مما ألم به حتى لا تضطرب البلاد •

وفى ربيع الآخر سنة ٨٧٦ هـ نزل السلطان الى خليج الزعفران على سبيل النزهة وكان معه الأتابكى أزبك وجماعة من الأمراء ، فأقام هناك الى آخر النهار ، وفى طريق عودته وجد عند الحسينية جنازة امرأة غريبة ليس معها أحد من الناس سوى الحاملين فنزل عن فرسه ومن معه من الأمراء ، فصلى عليها على قارعة الطريق وأم الجماعة الذين حضروا الصلاة ، والحق أن هذه مكرمة توضع فى سجل حسنات السلطان •

وفى رجب سنة ٨٧٦ هـ أخذ السلطان فى النزول الى الأسطبل كل يوم سبت وثلاثاء ، وكثرت المحاكمات وتزايدت الشكاوى ومن نوادر ما حدث أن شخصا يقال له محمد القلينى اشتكى ناظر الخاص تاج الدين بن المقسى وكان السلطان متحاملا عليه ، فأمر بضربه بالمقارع بين يديه فجرده من ثيابه وضربه حتى أدمى جوانبه ، وكان يوما شديد البرد ثم أمر بسجنه فى البرج بالقلعة فطلع ماشيا من باب السلسلة الى البرج مجردا من ملابسه مكشوف الرأس والدم يسيل من جوانبه ولا شك أن هذه من مساوىء السلطان •

وفى نفس الشهر نزل السلطان الى المطرية ثم عاد من على

قنطرة الحاجب فأذن عليه المغرب عندما وصل الى المدرسة الجيعانية بالقرب من بركة الرطلى نزل وصلى المغرب هناك ، وكان الامام فى الركعة الثانية فصلى مع الجماعة ، فلما فرغت الصلاة وجد الامام صبيا أمرد فأعاد الصلاة ثانية .

وفى صفر سنة ٨٧٧ هـ توجه السلطان الى دمياط ورشيد وتروجه وغيرها من البلاد ، وركب البحر فى عدة مراكب بصحبة الأتابكى أزبك والأمير أزبك اليوسفى وغيرهم من الأمراء ، واستغرقت هذه الرحلة ثلاثة عشر يوما .

وفى جمادى الأولى سنة ٨٧٨ هـ توجه السلطان الى طرا وأقام بها الى آخر النهار وعاد . وفى نفس الشهر نزل السلطان وتوجه الى خليج الزعفران ونصب هناك الخيمة التى أهداها له ملك الهند ، فأقام هناك ثلاثة أيام ، ووافاه هناك الأمير يشبك الجمالى رسول السلطان الى ابن عثمان فور وصوله لابسا خلعة ابن عثمان ومكاتبة تتضمن مودة ابن عثمان للسلطان .

وفى ربيع الآخر سنة ٨٨٠ هـ أشيع بين الناس أن السلطان عزم على السفر بنفسه الى الشام ، فنزل الى الميدان الكبير بالناصرية وعرض الخيول هناك ثم توجه الى بولاق ونزل فى ضيافة شرف الدين الأنصارى ، ونزل السلطان فى الغراب (نوع من السفن) الذى أنشأه الأنصارى تحت داره وتوجه به الى شبرا ، ثم عاد وطلع الى القلعة

وفى جمادى الآخر سنة ٨٨٠ هـ توجه السلطان الى طرا فى ضيافة ابن البلاح ومن طريف ما حدث فى هذه الضيافة أن ابن البلاح أحضر بين يدى السلطان قدورا مختومة بها شهد ففتحت منها قدر بين يدى السلطان وهو جالس على السماط ، فلما فتحت خرجت منها نحلة كبيرة ، وقصدت وجه السلطان ولدغته فى جفن عينه فورم وجهه فى الحال ورجع الى القلعة .

وفى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ توجه السلطان بحرا فى مائة مركب الى ثغر دمياط ، وهذه هى السفرة الثانية ، ولما وصل السلطان الى ثغر دمياط استقبله النائب وأعد له الأسمطة الجليلة ، وأقام هناك عدة أيام وهو فى أرغد عيش وتنزه فى المزارع وتوجه الى مكان يصاد فيه السمك البورى ، ونزل فى مركب صغير وعاين كيف يصاد البورى ، وعاد الى القاهرة بحرا ، واستغرقت هذه الرحلة خمسة عشر يوما .

وفى رجب سنة ٨٨٠ هـ خرج السلطان على حين غفلة قاصدا السفر الى بيت المقدس ، وكان معه الأتابكى أزبك ويشبك الداودار وآخرون من الأمراء ، والخاصكية وغيرهم ومكث بالقدس ثلاثة أيام نشر فيها العدل ، ثم زار الخليل عليه السلام وتصدق فى القدس والخليل بستة آلاف دينار وأزال المظالم الحادثة هناك . ورتب أحوال الأمراء فى غزة . ولما مر

بالقرين (٥٥) أمر ببناء جامع وسبيل هناك وقدم له أعيان الناس فى هذه الرحلة الكثير من الهدايا • ولما وصل الى قطيا خرج جماعة من الأمراء لاستقباله • وفى العشرين من شعبان وصل السلطان ودخل القاهرة فى موكب حافل وأمامه الأمراء ، وخرج اليهود والنصارى وبأيديهم الشموع الموقدة واخترق القاهرة حتى طلع الى القلعة •

وفى ذى القعدة سنة ٨٨٠ هـ سافر السلطان الى الفيوم للمرة الثانية ، وكان معه الأتابكى أزبك ويشبك الداودار وجماعة من الأمراء المقدمين والعشرات ، وذهب السلطان ليرى ضيعة خاير بك من جديد التى أنشأها هناك وجعل بها طاحونا تدور بالماء •

وفى شعبان سنة ٨٨١ هـ نزل السلطان الى الرماية وعاد فى موكب حافل ولم يمر من القاهرة وطلع من بين الترب وتكرر نزوله الى الرماية فى هذا الشهر ثلاث مرات يسلك فى كل منها نفس الطريق ، وذلك حتى لا يشكو له الناس من الفلوس الجدد •

وفى رمضان سنة ٨٨١ هـ أشيع بين الناس أن السلطان ارتدى زى المغاربة ونزل الى الجامع الأزهر وصلى به ، وكان

(٥٥) **القرين** : احدى قرى محافظة الدقهلية ، ومازال المسجد قائما بها •

يسأل فى بعض الطرقات الناس عن سيرة نفسه ووقع له مع الناس فى هذا الأمر أشياء غريبة وسمع نقد الناس لأفعاله .

وفى المحرم سنة ٨٨٢ هـ نزل السلطان ومعه جماعة من الأمراء وتوجه الى العباسية والصالحية وكشف عن الجامع والسبيل والحوض التى أنشأها هناك ، وأقام بالعباسية أياما ثم عاد الى القلعة .

وفى يوم السبت الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٨٨٢ هـ عدى السلطان النيل الى الجيزة ولم يشعر به أحد من الناس ، قاصدا التوجه الى الاسكندرية وسافر عن طريق البر وأرسل معداته بحرا بالمراكب وسافر معه الأمراء وكاتب السر وغيرهم وزينت له الاسكندرية عند وصوله واستقبله بها الملك المؤيد أحمد بن الأشرف اينال وقجماس الاسحاقى نائب الاسكندرية وتجمع الناس لرؤية السلطان ، فدخل السلطان فى موكب حافل وحمل الأتابكى أزبك القبة والطير على رأسه والملك المؤيد بين يديه وأمامه الأمراء والأعيان وأرباب الدولة ، ومن طريف ما حدث أثناء تلك الزيارة أن سقط الطائر الذهب من فوق القبة فنزل الأمير يشبك الدوادار من فرسه وثبت الطائر على القبة ، ونثر بعض تجار الفرنج على رأس السلطان ألف بندقى ذهب فتزاحمت عليه المماليك يلتقطون ذلك الذهب من الأرض وكاد السلطان أن يسقط من ظهر الفرس من شدة الزحام حتى

أدركه الأمير تمراز رأس نوبة النوب وفى يده عصا فضرب بها الناس حتى نجا السلطان ومشى واستمر ذلك الموكب حتى خرج الى باب البحر فنزل بالمخيم الذى نصب له على ساحل البحر الملح ، ولم يوافق السلطان على فك أبواب المدينة وأمر بابقائها على ما هى عليه ، وكانت العادة القديمة اذا دخل سلطان الى المدينة تفك أبوابها وتلقى على الأرض لحين رحيله عنها • ولما نزل السلطان بالمخيم أضافه النائب ، ثم خلع على الملك المؤيد وعلى النائب ورجعا الى دورهما وصحبتهما الأمراء ، فأقام هناك ثلاثة أيام ولعب الكرة فى الفضاء ولعب معه الملك المؤيد والأمراء الذين توجهوا معه وأرسل اليه تجار الاسكندرية هدايا كثيرة ، وتوجه السلطان الى مكان المنار القديم الذى كان بالاسكندرية وأمر ببناء برج على أساسه القديم فبنى به برجا مازال موجودا حتى الآن ، ثم رحل السلطان عن الاسكندرية وتوجه الى ادكو ودمنهور وغير ذلك من البلاد واستمر ينتقل من مكان الى مكان للنزهة ما يقرب من أربعين يوما حتى عاد الى القلعة وجدير بالذكر أن السلطان لما عاد طلع من بين الترب •

وفى شهر جمادى الأولى سنة ٨٨٢ هـ خرج السلطان فجأة وتوجه الى الصالحية ، ثم بعد أيام أشيع أنه توجه من هناك الى البلاد الشامية ، فتعجب الناس من ذلك ولم يكن معه من المماليك سوى أربعين مملوكا من خواصه وكان معه بعض أمراء

عشرات وبعض المباشرين وترك بالقاهرة الخليفة المستنجد بالله يوسف والقضاة الأربعة والأتابكى أزبك ويشبك الدوادار وسائر الأمراء المقدمين والطبلخانات والعشرات وجميع العسكر .

وفى جمادى الآخرة حضر هجان من عند السلطان وعلى يده مراسيم الى الأمراء بالقاهرة مضمونها أن السلطان توجه الى البلاد الشامية ليكشف عن أمر النواب والقلاع بنفسه وأوصى الأمراء بالرعية والجند خيرا .

وفى شعبان وصل هجان من عند السلطان وأخبر بأنه زار طرابلس وحلب وأقام بها أياما وأنه متوجه الى الفرات ، ثم حضر هجان ثان وعلى يده مراسيم للأمراء بالسلام وخطاب للأتابكى أزبك يأمره فيه بأن يلبس الأمراء الصوف وأن يصرف الكسوة للجند ، وصدع أزبك بالأمر وألبس الأمراء الصوف كعادة السلاطين ، وفى رمضان جاءت الأخبار من حلب بأن السلطان مكث بالفرات أياما ثم عاد الى حلب ورحل عنها الى حماه فلما دخلها مرض مرضا حادا ودخل دمشق على محفة ، وكثرت الشائعات بموت السلطان ، واضطربت القاهرة ، وأخذ كل أمير يعمل للوصول للسلطنة ، وبينما هم على تلك الحال حضر خاصكى من عند السلطان ، وعلى يده عدة مكاتبات للخليفة والقضاه الأربعة والأتابكى أزبك وبقية الأمراء وغيرهم بما حصل له من توعك فى جسده ويبشرهم بشفائه وعافيته ،

وعند ذلك ضربت البشائر بالقلعة وزينت القاهرة سبعة أيام وأظهر الناس الفرح والسرور بشفاء السلطان • ثم حضر هجان من عند السلطان ، وأخبر أنه خرج من الشام بعد ما جلس فى القصر بالميدان وحكم بين الناس وارتفعت الأصوات له بالدعاء ، ثم حضر هجان ثان وأخبر أن السلطان خرج من غزة متوجها للديار المصرية فخرج الأمراء لاستقباله ، ثم وردت الأخبار بوصوله الى قطيا • ووصل السلطان الى الصالحية فى شوال وصلى صلاة الفطر وخرج الأتابكى أزبك والأمير يشبك وبقية الأمراء للقائه ، ولما وصل الى الخانكاه خرج القضاة والعسكر وزينت القاهرة ، ودخل السلطان القاهرة فى رابع شوال من باب النصر وشق القاهرة والأتابكى أزبك رافع القبة والطير على رأسه• وفرشت له الشقق الحرير من باب زويلة الى القلعة ونثرت عليه خفائف الذهب والفضة فى عدة أماكن واستمر الموكب حتى طلع القلعة ، فلما طلع القلعة فرشت له خوند شقق حرير وأثواب مخمل من باب القلعة الى الحوش ونثرت عليه خفائف من الذهب والفضة واستقبله المغنون ونصبت الأسمطة ، وبعد الانتهاء من الاحتفال خلع السلطان على من كان مسافرا صحبته •

وفى ذى القعدة سنة ٨٨٢ هـ توجه السلطان الى الجيزة ورأى خيوله وأقام هناك أياما ، ثم توجه الى منوف وكشف عن جسورها وأمر باصلاحها وأقام هناك أياما وعاد الى الجيزة ،

ثم سافر من هناك الى الفيوم بدعوة من خاير بك من حديد لمشاهدة البستان الذى أنشأه هناك وهذه ثالث زيارة له للفيوم، وأقام السلطان عدة أيام بالفيوم فى أرغد عيش ثم وافته الأخبار بأن عرب هواره ثاروا مع يونس بن عمر على سيباى كاشف الوجه القبلى وهزموه وغضب السلطان وعزم على السفر بنفسه فمنعه الأمراء من ذلك وأرسل يستحث الأمير يشبك بسرعة السفر الى هناك .

وفى شعبان سنة ٨٨٣ هـ توجه السلطان الى القرين ثم الى الخطارة لمشاهدة الجامع والسبيل اللذين أنشأهما هناك والحوض الذى أنشأه على الدرب السلطانى وكان الشاد (٥٦) على تلك العمارة الأمير يشبك الجمالى .

وفى ذى الحجة سنة ٨٨٣ هـ ذهب السلطان الى الجيزة وكشف على القناطر التى أمر بانشائها على يد الأتابكى أزبك .

وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٤ هـ سافر السلطان الى ثغر الاسكندرية بحرا وهى المرة الثانية لعدم تمكنه من السفر برا بسبب مياه الفيضان ، وسافر الأمراء والخاصكية والمماليك السلطانية والمباشرين والأعيان ، وكان سبب سفره لمعاينة البرج الذى أنشأه بها ، وقد انتهى العمل فيه ، فلما دخل الاسكندرية

---

(٥٦) **الشاد** : المشرف على العمل .

لم يعمل له موكب مثل المرة الأولى ولم تحمل القبة والطير على رأســه ، ونزل بالمخيم فى ضيافة نائب الاســكندرية ثم توجه الى رشيد وكشف على البرج الذى أنشأه بها ثم كشف على البرج الذى أنشأه بثغر الاسكندرية وأنشأ بهذا البرج مقعدا مطلا على البحر ينظر منه على بعد يوم الى مراكب الفرنج وهى داخـلة الى الميناء ، وجعل به جامعا بخطبة وطاحونا وفرنا وحواصل ملأها بالسلاح وجعل حوله المكاحل (٥٧) المعمرة بالمدافع ليلا ونهارا لحماية الثغر من الفرنج ، وجهز به جماعة من المجاهدين مرابطين دائما ورتب لهم المرتبات ، وقيل ان ما صرف على هــذا البرج زيادة على مائة ألف دينار وأوقف عليه عدة أوقاف . وأقام السلطان بالاســكندرية أياما ، ثم ســافر الى دسوق وزار مقام سيدى ابراهيم الدســوقى ماشيا على قدميه والأمراء حوله واستمر فى هذه الرحلة حتى أواخر جمادى الأولى . وفى نهاية الشهر عاد الســلطان بحرا الى بولاق وعاد الى القلعة ، ولم يأبه السلطان بوجود الملك المؤيد بالقاهرة أثناء سفره الى الاسكندرية مع أن مماليك أبيه الأشرف اينال كانوا فى غاية العصيان وقد حاولوا اثارة الاضـطراب أثناء غيبة السلطان ولكن انكشف أمرهم .

وفى شوال سنة ٨٨٤ هـ خرج المحمل من بركة الحاج ونزل السلطان من القلعة فى الثالث والعشرين من شوال ، ولم يشعر

---

(٥٧) **المكاحل** : المدافع التى يرمى منها النفط ، وهى أنواع .

بسفره أحد من الناس وسافر معه بعض أمراء عشرات وبعض أمراء من أخصائه وعدد كبير من الخاصكية والمماليك السلطانية (٥٨) وجماعة من المباشرين والأعيان ، فخرج من بين الترب وسافر بعد صلاة الظهر ونزل معه الأتابكي أزبك ويشبك الدوادار فودعاه ورجعا وأوصاهما السلطان خيرا بالرعية ، ثم سافر للبويب (٥٩) ثم قدم مبشر الحاج وأخبر بسلامة السلطان وأنه دخل مكة ولاقاه أمير مكة من مسيرة يومين وأنه تصدق على فقراء مكة بخمسة آلاف دينار ، وأنه فعل فى الطريق أشياء كثيرة من وجوه البر والمعروف .

وفى المحرم عام ٨٨٥ هـ حضر رسول من عند السلطان وأخبر بأنه دخل المدينة الشريفة وزار القبر الشريف وأنعم بها على الفقراء بخمسة آلاف دينار وأنه وصل الى الينبع قاصدا العقبة وأنه رحل عنها وسيصل عما قريب ، وطلب الا يحضر اليه أحد من الأمراء وأنه سينزل بقبة الأمير يشبك بالمطرية ، فأسرع الأمراء بالخروج الى هناك ونصبوا الخيام ، ولما وصل السلطان البويب ركب الأتابكى أزبك ويشبك الداودار وبقية الأمراء من المطرية وتوجهوا لملاقاته فلما وصلوا البويب اجتمعوا بالسلطان هناك وساروا أمامه حتى وصل المخيم بالمطرية وبات السلطان

(٥٨) المماليك السلطانية : مشتريات السلطان وجلبانه .
(٥٩) البويب : مدخل أهل الحجاز لمصر .

هنالك وحضر اليه قضاة القضاة والمشايخ وهنئوه بسلامة العودة.
وفى الرابع عشر من المحرم ركب السلطان وحمل الأتابكى أزبك على رأسه القبة والطير وركب أمامه الأمراء والعسكر وسار أمامه القضاة الأربعة فدخل من باب النصر وشق من القاهرة وقد زينت له زينة رائعة وحضر ابن رحاب المغنى ولاقاه المغنيات على الدكاكين ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير من التبانة الى القلعة ، فلما وصل القلعة فرشت له خوند عدة شقق من باب القلعة الى الحرش ونثرت على رأسه خفائف الذهب والفضة ، ثم خلع السلطان على من كان معه ونزلوا الى بيوتهم . وقدمت هدايا للسلطان فى هذه الحجة من مال وتحف تساوى مائتى ألف دينار من أمير مكة وقضاتها ومن أعيان التجار بها وكذلك من أمير المدينة المشرفة وقضاتها ومن أمير ينبع وغيرهم .

ومن ثمرات هذه الرحلة أن السلطان عندما اكتمل المجلس يوم الاحتفال بالمولد النبوى الشريف حضر كاتب السر ابن زهر وأبو البقاء بن الجيعان وخشقدم الزمام وخلفهم ستة أطباق على رؤوس ستة من الطواشية (٦٠) وضعت بين يدى السلطان بحضرة القضاة والأمراء ، ولما كشف النقاب عنها وجد بها ستون ألف دينار ذهب عين وقال كاتب السر فى المجلس : ان

(٦٠) **الطواشية** : الخصيان الذين استعملوا فى الطباق المملوكية وفى الحريم السلطانى .

السلطان لما حج فى العام الماضى رأى ما عليه أهل المدينة المشرفة من فاقة لقلة الأقوات قرر السلطان أن يفعل بالمدينة المشرفة خيرا يكون مستمرا من بعده ، وقد خرج عن هذا المال لله تعالى وهو من خالص ماله دون مال بيت المسلمين ليشترى به ما يوقفه على فقراء المدينة من ضياع وأماكن ورباع وغير ذلك مايعمل بالمدينة فى كل يوم من الدشيشة والخبز والزيت وغير ذلك كما يفعل بمدينة الخليل عليه السلام ، فارتفعت له الأصوات بالدعاء فى ذلك المجلس • ثم أمر السلطان بأن يكون هذا المال تحت يد قاضى القضاة الشافعى حتى يشترى به أماكن وضياع فامتنع القاضى عن ذلك واعتذر عن تسليمه حتى أعفى ثم شرع السلطان فى بناء تلك الرباع التى أنشأها فى باب النصر وفى غيرها من أنحاء القاهرة ومازال مبنى باب النصر قائما حتى الآن عليه نقوش تؤيد وقف ايرادها على شراء قمح الدشيشة لفقراء الحرمين الشريفين •

وفى ربيع الأول سنة ٨٨٥ هـ نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك وفى أثناء عودته وقف له جماعة من العوام وشكوا له من اهمال أمر الحسبة (٦١) كما شكوا من قلة وجود الخبز بالدكاكين من بعد العصر ، فلما عاد الى القلعة وأمر الصاحب

(٦١) الحسبة : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ويطلق على من يتولاها اسم المحتسب •

قاسم شغيته بأن يتولي أمور الحسبة عوضا عن يشبك الجمالي الذى عزل لاهماله •

وفى صفر سنة ٨٨٦ هـ توجه السلطان الى قليوب وعاد الى قبة الأمير يشبك بالمطرية وصلى الجمعة بها وأمه قاضي القضاة الشافعي ، وفى نفس الشهر نزل السلطان الى الخانكة فأعجبه مكان عند قناطر المرج والزيات فأمر ببناء زاوية هناك وحوضا وسبيلا • وفى هذا الشهر نزل السلطان الى الروضة وأمر بتجديد الجامع الموجود بها تجاه المنشية والذى آل الى الخراب ، فأمر بهدمه وتجديده وكان الشاد على عمارته البدرى حسن بن الطولونى ، ثم توجه الى المقياس ونزل عن فرسه ودخل الى قاعة المقياس وأمر بتجديد بعض أماكن بها واصلاح أساساته ، وأخذ السلطان يتردد على الروضة لمشاهدة هذا الجامع حتى انتهى منه فى سنة ٨٨٨ هـ وصار يعرف بجامع السلطان •

وفى رمضان سنة ٨٨٦ هـ نزل السلطان الى قبة الأمير يشبك الدوادار بالحسينية وأمر باتمامها فان الأمير يشبك لم يكملها وهى المعروفة الآن بالقبة الفدوية ورجع السلطان من القاهرة وشكا اليه الناس من الفلوس الجديدة وغلو البضائع ، فلما طلع القلعة أمر بعقد مجلس بالمدرسة الصالحية (٦٢) فاجتمع القضاة

---

(٦٢) **المدرسة الصالحية** : مازالت قائمة بالصاغة بالقاهرة وهى من انشاء الصالح نجم الدين أيوب •

الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص والمحتسب وأخذوا يناقشون مشــكلة الفلوس الجديدة وعارض ناظر الخـاص فى الفلوس القديمة لأنه ضرب فلوسا جديدة عليها اسم السلطان وأراد أن يخرجها بأغلى من الفلوس العتق ، وثار العوام فى وسط المدرسة الصـالحية ورجموا ناظر الخاص ولولا وجود كاتب السر لقتله العوام ، ثم اتفق على أن تكون الفلوس كلها العتق والجديدة بالميزان بستة وثلاثين الرطل ، وأعلن ذلك فى القاهرة .

وفى المحرم سنة ٨٨٨ هـ نزل السـلطان وتوجه الى جهة سنبيت لمعاينة الجسور ثم زار مقام سيدى أحمد البدوى .

وفى المحرم سنة ٨٩١ هـ نزل السلطان الى الشرقية لمعاينة الجسور وغاب هناك أياما ثم عاد الى القلعة . وفى نفس الشهر نزل السلطان وتوجه الى الروضة وعدى وهو راكب وتوجه الى خرطوم الروضـة وأقام به الى آخر النهار وأمر ببناء قصر له هناك ولكن ذلك لم يوضع موضع التنفيذ ، وفى نفس الشـهر توجه الى قبة يشبك بالمطرية ، فلما رجع نزل عن فرسه ، وزار تربة الظاهر برقوق ودرس أحوالها وأمر بأن يعمل لها منبر من الحجر مـازال موجودا حتى الآن . ثم عـاد الى القلعة وأمر برعاية مصالح الصوفية بتربة الظاهر برقوق .

أمراض السلطان ووفاته :

انتاب السلطان كما ينتاب غيره من بنى البشر وعكات وأمراض كان آخرها مرض موته • فقد أصيب بكسر فى ساقه عندما شب فرس الأتابكى أزبك على فرس السلطان ورفسه فجاءت الرفسة فى رجل السلطان فكسرت ورجع الى شبين القصر (شبين القناطر الحالية) ومنها الى القاهرة فى محفة ، وكثرت الاشاعات ثم خرج السلطان وأرسلت الرسل الى حلب معلنة سلامته • وعندما تمالك السلطان السرور بعد هزيمة العثمانيين ركب أحد خيوله وأخذ يتنزه فى القلعة وانقلب به الفرس فسقط على الأرض وانكسرت رجله وأغمى عليه وحمله بعض الخاصكية وهو مغمى عليه الى قاعة الدهيشة وترددت الاشاعات بوفاته ، وأسرع الأمراء لزيارته بالقلعة ، وأمر السلطان كاتب السر بأن يكتب على الفور مراسيم الى حلب ليطمئن الأمراء والجند ، وظل السلطان مريضا وزاره القضاة فى القاعة الواقعة بين الدهيشة وقاعة الحرم وعلى الرغم من مرض السلطان فقد زينت القاهرة والقلعة ، عندما وصلت القاهرة رؤوس بعض الجند العثمانيين بعد هزيمتهم ، وكسيت دكة السلطان بالحرير وأقيمت المراسيم كما لو كان السلطان حاضرا، ولم يتمكن السلطان من الاشتراك فى هذا الاحتفال ، ولكى يطمئن الشعب على سلامته حمل على السرير وخرج الى قاعة الدهيشة وجلس بالشباك المطل على الحوش ، واطمأن الناس

عليه ، وصلى السلطان الجمعة بجامع القلعة بعد شفائه ، واحتفلت القلعة بشفائه ، واستقبل بالغناء ونثرت خوند على رأسه خفائف الذهب والفضـــة وفرشت له شقق الحرير تحت حافر فرسه ، وكافأ الســـلطان الأطباء والمزينين بالخلع السنية وزينت القاهرة لشفاء السلطان •

حاول المماليك الجلبان اغتيال الســـلطان أثناء نومه على الدكة فى الحوش فى زمن الصيف ، ولما علم الخاصـــكية بأنباء تلك المؤامرة أبلغوا السلطان بها فترك ذلك المكان ، وفى الصباح وجد ثلاثة أسهم نشـــاب فى المخدة التى كان ينام عليها ، وكتم السلطان ذلك الخبر • ويبدو أن الجلبان الذين فشلوا فى اغتياله حاولوا الثورة للقضـــاء عليه ، نزل السلطان الى باب السلسلة وجلس بالمقعد ولكن المماليك لم يكترثوا بذلك بل زاد طغيانهم، وحزن السلطان وأصابته الحمى وصعد الى المقعد ، ودخل الى المبيت الموجود به ، ولزم الفراش وازداد عليه المرض ، وأصابه اســـهال مفرط أقعده عن الحـــركة • طلع الأتابكى أزبك الى السلطان فى المبيت فوجده فى النزع الأخير وعرض عليه ما انتاب البلاد من فساد وطلب منه أن يسلطن ابنه محمد ولكنه لم يرد جوابـــا ، ونزل أزبك ليعلن ابنه محمد ســـلطانا بدلا من أبيه ، خشى الأمراء من أزبك وثاروا عليه وقبضوا عليه ونفوه واشتوروا فيما بينهم على من يتولى الســـلطنة اجتمعت كلمتهم على تولية

محمد ابن السلطان . اجتمع مجلس من الخليفة والقضاة والأمراء وخلعوا السلطان الذى أشرف على الموت . وكان ابنه الأمير محمد حاضرا فبايعه الخليفة عونا عن أبيه ، وشهد القضاة، ولم يشعر السلطان الذى كان يعانى سكرات الموت بما يجرى حوله .

وفى ٢٧ ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ بعد العصر ، توفى السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباى بالقلعة وبات بها ، وشيعت جنازته فى اليوم التالى ، توفى وله من العمر نحوا من ٨٤ سنة . وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية ٢٩ سنة و ٤ أشهر و ٢٠ يوما . وجدير بالذكر أن السخاوى المؤلف ذكر مولد السلطان فى سنة بضع وعشرين وثمانمائة ، واذا كان السلطان قد توفى عن ٨٤ عاما فيكون مولده اذن سنة ٨١٧ هـ .

لم يخلف السلطان سوى ابنه محمد وسيرته العطرة وأعماله المعمارية التى خلدت اسمه ، والخيرات الكثيرة التى ما زالت قائمة .

صفاته ومحاسنه :

عاش عمره كله وهو فى عز وشهامة منذ أن كان خاصكيا الى أن صار سلطانا ، ولم ينف قط ولا قيد ولا سجن ، وكان عليه

سكينة ووقار مهابا جميل الهيئة مبجلا فى مركبه كفئا للسلطنة ، وافر العقل سديد الرأى ، عارفا بأحوال المملكة يضع الأشياء فى محلها ، ولم يكن عجولا فى الأمور ، بطيء العزل لأرباب الوظائف يتروى فى الأمور أياما قبل اتخاذ قرار بشأنها ، وكان لا يخرج اقطاع أحد من الجند الا بحكم وفاته ويرسل من يكشف عليه وهو ميت حتى يتأكد له نبأ موته .

كان طويل القامة عربى الوجه مصفر اللون نحيف الجسد شايب اللحية ، شجاعا عالما بأنواع الفروسية ولا سيما لعب الرمح . وكان مغرما بمشترى المماليك ، وأطلق على مماليكه الأشرفية وكانت نواتهم ما اشتراه من مماليك الظاهر خشقدم ، ولم يشرب الخمر قط ولم يستعمل المواد المخدرة ، اشتغل بالعلم وكان كثير المطالعات فى الكتب ، وله أذكار وأوراد جليلة كانت تتلى فى الجوامع ، واعتقاد فى القراء ويعظم العلماء ، عارفا بمقام الناس ، ينزل كل منهم منزلته . وكان متصوفا متقشفا ، لا يوصف بالكرم ولا بالبخل المفرط ، له بر ومعروف فقد أوقف عدة جهات على وجوه البر والصدقة ، وكانت محاسنه أكثر من مساوئه . وكان السلطان يشتغل بالتجارة ولما أراد أن يتصدق على فقراء المدينة المنورة بانشاء عمائر فى القاهرة تدر دخلا ثابتا يشترى منه القمح ، اشتراها من مال من دخله الخاص وليس من مرتبه المقرر له فى السلطنة .

مآخذ على السلطان :

سبق أن عرضنا لبعض تلك المآخذ ، على أن أكبر ما أخذ على السلطان هو ابطاله الكثير من شعار المملكة . وأخذ عليه ازال النواب من وظائف كبيرة الى وظائف أصغر .

ومن مساوئه قطع الرواتب عن أولاد الناس وان كان الدافع لذلك هو الاعداد لحرب شاه سوار ، ومنها ما تقرر من اخذ أجرة سبعة أشهر مقدما على الأملاك بما فيها أوقاف الجوامع والمدارس والترب . ومصادرة التجار وفرض الخمس على أراضى الشرقية للصرف منها على خيول الحرب وتعيينه المماليك عوضا عن مشايخ العربان وقد وقع منهم الظلم البالغ على الفلاحين ، ومنها احداث مكس على بيع الغلال وجعل على كل أردب قمح أو شعير نصف فضة زيادة عن ثمنه للمشترى والبائع على السواء ثم زاد ذلك الى نصفين . ومنها تفرقته الرواتب بنفسه وظل كذلك ، وهو أول من جلس من الملوك لتوزيعها . ونسب اليه قبول الهدايا والرشاوى كما حدث مع ابن مزهر .

أما قسوته على المباشرين وغيرهم فكثيره ، ومما لا يغتفر له أمره بقطع رأس أزدمر الابراهيمى الطويل الاينالى وذلك استجابة لاصرار يشبك الداودار وامتناعه عن الخروج لحرب سيف أمير آل فضل الا اذا قطعت رأسه وقد نفذ السلطان

ما أراد وخرج يشبك الى حرب سيف أمير آل فضل حيث قتل هناك • ومن مساوئه اعادة بناء كنيسة اليهود ببيت المقدس ومعاملته السيئة لقاضى القدس •

المؤرخون وقايتباى :

عاصر السلطان قايتباى عدة مؤرخين منهم ، أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى ، الذى عاصر أوائل عهد ذلك السلطان • ونور الدين على بن داود الصيرفى الخطيب الجوهري ، الذى عاصر معظم عصر ذلك السلطان ، ولولا ضياع مؤلفاته أو وجود نقص فى الجزء الموجود منها والمعاصر للسلطان لعرف الكثير عن عهده • وأبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوى ، وقد عاصر معظم عهد السلطان كذلك ، وتركه لنا ترجمة للسلطان ألقت الكثير من الضوء على حياته • ومحمد بن أحمد بن اياس الذى عاصر عهد ذلك السلطان • وامتدت به الأيام حتى رأى بعينى رأسه نهاية دولة المماليك وبداية حكم العثمانيين • وأما المؤرخ جلال الدين بن عبد الرحمن السيوطى المعاصر للسلطان فربما تنسب المخطوطة الخاصة بترجمة السلطان اليه •

هذا وقد ترجم للسلطان كثير من المؤرخين ، نذكر منهم ، مرعى بن يوسف بن أبى بكر بن أحمد المقدسي فى كتابه نزهة

الناظرين فى تاريخ من تولى مصر من الخلفاء والسلاطين . وعبد القادر بن العيدروس الهندى ، فى كتابه النور السافر . ونجم الدين محمد بن أحمد الغزى ، فى كتابه الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة . وأبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، فى كتابه شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . ولكل من هؤلاء وهؤلاء رأى فى السلطان ، آثرت أن أثبت بعض آراء المعاصرين منها باعتبارها حكما على ذلك السلطان .

يبدو أن ابن تغرى بردى لم يكن راضيا على نزول السلطان وطوافه بالأقاليم فعلق : (كل هذا والسلطان دائر بتلك الأقاليم فى هوى نفسه ودأبه أخذ الأموال والتقادم (٦٣) من الناس حتى من كبار فلاحى البلاد ويتوجه بنفسه اليهم حتى يأخذ تقدمته ، ولم يكن فى سفره هذا مصلحة من المصالح بل المضرة الزائدة لاسيما على الفلاحين وأهل القرى فانه شملهم ضرر الأعوان والضوية (٦٤) لأخذ الأحطاب فكانوا اذا ما لقوا شيئا فى البيت أخذوا بابه وخشبه وكذلك فعلوا بغالب الطواحين ، ويقول المجازف وكذا فعلوا بالمساجد ، ومع ذلك كله استطالت العرب على الناس وكثر الفساد) .

---

(٦٣) التقادم : الهدايا .

(٦٤) الضوية : المكلفون بأعمال الاضاءة .

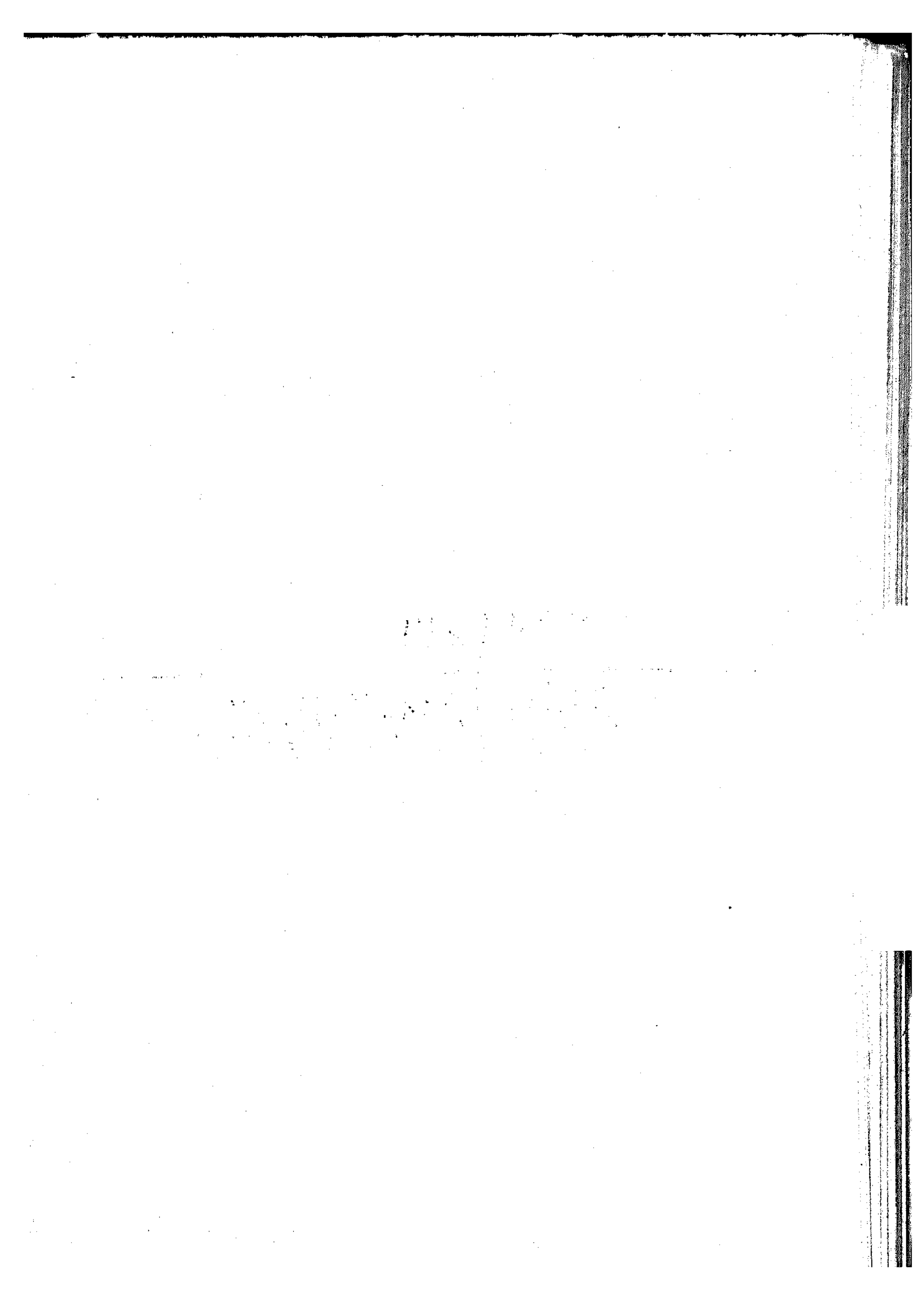
أما الجوهرى فقد كال الثناء والمديح للسلطان قائلا : (فى الواقع فسلطان مصر الملك الأشرف أبو النصر قايتباى نصره الله ، سلطان شجاع ، فارس معدود من الفرسان ، دين عفيف الفرج ، لا يلوط ولا يزنى ولا يسكر ، وله ورد فى الليل من صلاة وقيام ، وعنده تؤدة عظيمة سيما فى القول والولايات).

أفرد السخاوى ترجمة مطولة للسلطان عدد فيها مآثره وأعماله ، وتعتبر بحق أكبر حكم منصف لذلك السلطان ، ومنها قوله (ولما استقر فى المملكة أخذ فى الابقاء والعزل والأخذ والبذل والتحرى لما يراه العدل والتقريب والترحيب والتهديد والارشاد والابعاد والتلبث والتثبت برأيه وتدبيره وسعيه وتقريره مع الحرمة الزائدة والهمة التى بالشهامة شاهدة ، والخضوع لمن يعتقد فيه العلم والصلاح والرجوع لمن لعله يستند اليه بالارتياح، وعدم التفاته لحبل الشفاعات وتخيلاته من تلك المعارضات والمدافعات) وختم ترجمته قائلا : (وبالجملة فلم يجتمع لملك ممن أدركناه ما اجتمع له ولا حوى من الحذق والذكاء والمحاسن مجمل ما اشتمل عليه ولا مفصله ، وربما مدحه الشعراء فلا يلتفت لذلك ويقول لو اشتغل بالمديح النبوى كان أعظم من هذه المسالك وترجمته تحتمل مجلدات من الأمور الجليات والخفيات) .

أفرد ابن اياس مجلدا كبيرا من كتابه بدائع الزهور لعصر ذلك السلطان واختتمه بذكر أعماله وذكر محاسنه ومساوئه ، وختم ذلك قائلا (ومن محاسن الأشرف قايتباى أنه كان فى شدة غضبه يستحيل راضيا ويزول ما كان عنده من الحدة ، وهذه من أجمل الخصائل ، وفى الجملة كانت محاسنه أكثر من مساوئه، وكان خيار الترك بالنسبة لمن جاء من بعده من السلاطين ولولا كان عنده بعض طمع لكان أجل ملوك الجراكسة ، وكان من خيارهم) .

الفصل الثانى

أحوال البلاد الداخلية



امتد حكم السلطان قايتباى ما يقرب من الثلاثين عاما ، وهى أطول فترة حكم فيها سلطان من سلاطين الجراكسة ، وكان لحسن تدبيره وكياسته أكبر الأثر فى استقرار الأمور فى البلاد ، كما كان لانتصاراته الحاسمة على العثمانيين أكبر الأثر فى تثبيت هيبة الامبراطورية المملوكية بين الدول المحيطة بها والدول التى تربطها بها علاقات خارجية ، وقد بدأ السلطان عهده بتدبير أمور الدولة وترتيبها كما بدأ فى التخلص من مماليك السلاطين الذى حكموا قبله حتى يأمن شرهم . وقد واجه السلطان الكثير من الثورات الداخلية بالاضافة الى ثورات التابعين له فى أطراف الامبراطورية ، ولولا تلك الثورات الداخلية لامتاز عهد السلطان بالأمن المطلق ، ومع ذلك فقد عمت الطمأنينة بين الناس وأخذ الأمراء الذين فروا قبل عهده والتجأوا الى بلاد العثمانيين يعودون الى ديارهم ، كما لجأ اليه الكثيرون فأكرم وفادتهم . وأما الثورات الداخلية فلعل أهمها

ثورات الجلبان المتكررة والتي زهدت السلطان فى الحكم وجعلته لا يوافق على سلطنة ابنه من بعده خوفا عليه والتى جعلت السلطان نفسه يهدد بالعزل حتى وضع ذلك التهديد موضع التنفيذ وخلع نفسه وان كان قد أعيد الى السلطنة للمرة الثانية فى نفس المجلس ، ويبدو أن الجلبان لم يقدروا حرج موقف السلطان وما تكبده من النفقات على الحملات الحربية ، فأخذوا يطالبون بالمزيد من النفقات ولم يكترثوا بتهديد السلطان بل تطاولوا عليه وحاولوا اغتياله وكانوا سببا فى ترك الأتابكي أزبك لوظيفته ومغادرته البلاد الى مكة ، وأما ثورات الأمراء فقد استطاع السلطان بحزمه ولباقته أن يوازن بينهم وأن يصبح بمنجاة منها وهى الثورات التى كثيرا ما كانت تعكر صفو السلطان القائم بالأمر وتهدد حكمه ، وأما العرب فأخذوا يخرجون المرة تلو المرة على حكم المماليك حتى هددوا ذلك الحكم ، مما اضطر السلطان أن يرسل لهم الحملات المتعاقبة الواحدة تلو الأخرى ليبطش بهم ويعيدهم الى حظيرة الدولة . وأما الشعب فكان له دور ملحوظ فى عهده ، وكان السلطان يخشى بأسه ويتحاشى مواجهته ، وكان دور الفقهاء ملحوظا . وقد وقف بعضهم فى وجه السلطان مواقف حاسمة ومشرقة ، ولم يخش بأسه .

سارت الأمور الداخلية فى طريقها المألوف من الاحتفال

بوفاء النيل الى الاحتفال بختم قراءة البخارى الى مواكب العيد والمواكب فى المناسبات المختلفة الى غير ذلك مما كان متبعا فى الدولة قبل عهده ، كان المماليك ينعمون بخيرات البلاد وتقام لهم الاحتفالات البهيجة فى عقد قرانهم وفى ختان أبنائهم وزواجهم. ولم يعكر صفو تلك الأحوال الا ما اجتاح البلاد من نقص فى فيضان النيل فى بعض الأحايين والى ما اجتاح البلاد من طواعين وما هزها من زلازل . أما ما كان ينتاب الشعب من اعتداء المماليك فلا يمكن أن يقاس بما كان يعانيه قبل عهد ذلك السلطان لانشغالهم فى الحروب المتعاقبة ضد شاه سوار وحسن الطويل والعثمانيين . اندلعت بعض الثورات فى أقاليم الامبراطورية وكان معظم أسبابها ما يحيق بالأهالى من ظلم الولاه . اعتنى السلطان بالجسور المقامة على النيل باعتباره مصدر الخير للبلاد . وكان لضرب نقود جديدة أثر سيء فى ارتفاع الأسعار والتى كان نقص فيضان النيل فى بعض السنين من أسبابها أيضا ، بالاضافة الى ثورة الشعب عليها ووقوفه فى وجه السلطان بسببها . ومن تصرف بعض المحتسبين عانى الشعب الكثير .

التخلص من مماليك السلاطين السابقين :

بدأ السلطان فى التخلص من مماليك السلاطين السابقين لكى يأمن شرهم وكون له مماليك جددا سماهم الأشرفية وهم الذين أصبح عليهم المعول فى دولته وبعد حكمه أيضا . وقد

عمل السلطان على أن يتخلص من الخشقدمية والاينالية • أما الخشقدمية فبدلا من نفيهم أرسلهم الى محاربة شاه سوار الخارج على طاعة الدولة فى الشمال مع حملة كبيرة هزمت هزيمة نكراء وقتل منها عدد كبير ، هذا وقد اشترى السلطان منهم نحوا من خمسمائة مملوك من المماليك الكتابية دفع عشرة آلاف درهم ثمنا لكل منهم بعد أن أقاموا وصيا على الملك الظاهر خشقدم وأطلق عليهم اسم الأشرفية نسبة اليه • ولم يكتف السلطان بذلك بل أخذ فى نفى من بقى منهم •

أما الاينالية فعلى الرغم من أن السلطان أخذ يؤمر منهم الكثير فى أوائل سلطنته حتى يتفادى اتفاقهم مع الخشقدمية ، فانهم لم ينجوا من تنكيله بهم وتشريده اياهم وحتى الأمير قانصوة الخسيف الأحمدى الذى كان زعيما لهم والذى كان سببا فى وصول قايتباى للسلطنة لم يفلت من عقابه ونفاه لدمياط وكان السلطان يحقد عليه لما كان يردده فى مجالسه من أنه لولاه لما ارتقى قايتباى السلطنة ،و أخذ ينفيهم تديجيا ، بل زاد على ذلك أن عرض أحدهم وهو أمير عشره للبيع فى سوق الرقيق بخان الخليلى وأمر بأن يحمل ثمنه للملك المنصور عثمان بن جقمق ولم يقبل السلطان شفاعة فيه ، وكان لهذا المملوك رفيقين وكانوا جميعا فى ملك الملك المنصور عثمان بن جقمق فلما أرسلوا

اليه فى دمياط أعتقهم ، ونفى السلطان اثنين منهم وعفا عن ثالثهم بشرط أن يقيم فى مصر بلا عمل وكان السبب فى غضب السلطان عليهم هو اشتراكهم فى الثورة على السلطان فى نفس الوقت الذى ثار فيه المماليك على الأمير يشبك الدوادار ولكن أمرهم انكشف وأخذ السلطان فى نفيهم جماعة بعد أخرى ، وتكرر خروج الاينالية على السلطان وزاد تنكيله بهم ، وعلى الرغم من تنكيل السلطان بالاينالية الا أنه كان يعامل الملك المؤيد أحمد بن اينال معاملة حسنة وخرج الى الاسكندرية وتركه بالقاهرة وهو يعلم أن بها الاينالية مماليك أبيه وأنهم كانوا دائمى الثورة عليه وكانوا يتحينون الفرصة للاطاحة بعرشه ، ويبدو أن السلطان المؤيد أحمد بن اينال لم يكن متجاوبا مع مماليك أبيه وأنه اكتفى بالمعيشة فى الاسكندرية حرا طليقا وأن يحضر الى القاهرة كلما أراد باذن من السلطان . وقابل اكرام السلطان ورعايته له بالمثل فلم ينسب اليه شىء مما حدث من مماليك أبيه وكان سببا فى نفيهم وتشريدهم فى الأرض .

ثورات الجلبان :

أما الجلبان أو المشتروات وهم مماليك السلطان ، فقد سبق القول أنه اشترى أول طائفة منهم من مماليك الملك الظاهر خشقدم ثم أخذ عددهم فى الازدياد حتى أصبح المعول عليهم فى حكم قايتباى وبعده كذلك ، وقد كثرت ثوراتهم واقلقوا

مناجم السلطان وجعلوه يزهد فى الحكم وهدد بترك البلاد والذهاب الى مكة بل وخلع نفسه وزاد طغيانهم حتى شرعوا فى قتله لولا وصول نبأ المؤامرة اليه وتركه المكان الى مكان آخر . وكانت كل ثوراتهم ، لطلب المزيد من المال وضد السلطان وبعض الأمراء وتعدت ذلك للنهب والسلب ضد الشعب والتجار والمنشآت العامة .

وكانت أولى ثورات الجلبان فى شعبان سنة ٨٧٧ هـ على شرف الدين بن كاتب غريب . الذى كان مشرفا على الوزارة والاستادارية نيابة عن الأميريشبك الدوادار ، وقد توجهوا الى داره وكسروا أبوابه فهرب واختفى وفى عام ٨٧٨ هـ كثرت ثورات الجلبان ومنعوا الأمراء والمباشرين من الصعود الى القلعة فى جمادى الآخرة ورجب من نفس العام وكان رأس الفتنة على باى الخشن من مماليك السلطان ، ولما خمدت الفتنة ضربه السلطان نحوا من ألف عصا ونفاه الى الشام وظل فى المنفى حتى سقط عليه جدار وتوفى . وأما فى شهر ذى القعدة من نفس العام فقد قام الجلبان بثورة عارمة وتوجهوا الى بولاق ونهبوا ما فيها ، ثم توجهوا الى شونة الأمير يشبك ونهبوها واغتصبوا جمال السقايين وحملوها أسلابهم ، واشتد غضب السلطان ونزل من القلعة لمطاردتهم ولكن نزوله كان بعد فوات الأوان ، وبات السلطان فى جامع زين الدين الأستادار ببولاق واستضافه

امام الجامع وخطيبه القاضى تقى الدين البرماوى . وفى الشهر التالى عزم المماليك الجلبان على قتل الأمير يشبك ، ولكنه هرب منهم الى ضواحى الجيزة وظل مختفيا بها نحوا من خمسة عشر يوما ، وكثرت الاشاعات وامتنع الأمراء عن الصعود الى القلعة ، وظل السلطان غاضبا حانقا بالدهشة على مماليكه وأغلق أبوابه ثم صعد اليه الأمراء وكاتب السر وغيرهم وحاولوا التوسط بينه وبين جلبانه ولكنه صمم على عدم الصلح معهم ، ثم خرج الى الحوش وجلس على الدكة وطلب زعيم تلك الفتنة وكان شخصا يدعى الأقطش وأمر بقتله ثم شفع له الأمراء فأمر بتجريده من ثيابه ، وضرب ألف عصا ثم سجن بالبرج بالقلعة ، وظل يشبك مختفيا حتى هدأت الفتنة وعاد . ولم تنته ثورات الجلبان على الأمير يشبك عند هذا الحد ، ففى ربيع الأول سنة ٨٧٩ هـ ثار الجلبان عليه وصمموا على قتله ولما علم السلطان بذلك أمر كبار رجال الدولة بالاستعداد لملاقاة الجلبان ، وتأزمت الأمور بالقاهرة وأغلقت الأسواق ، ونصح الأمراء السلطان بأخذ الأمور باللين حتى لا يعطى للاينالية الفرصة بالثورة عليه اذا ما انشغل فى اخماد فتنة الجلبان ، وأخذ السلطان بنصيحتهم وأرسل أحد الأمراء الى منزل الأمير يشبك ومعه بعض المماليك الجلبان واعتذروا له وانتهت الفتنة . وما كادت هذه الفتنة تخمد حتى ثار الجلبان مرة أخرى على الأمير يشبك وتذرعوا

هذه المرة بأنه دس السم للأمير جانم ، وظل الأمير يشبك في خوف ووجل من الجلبان وأخذ يتقرب اليهم بشتى الوسائل وكان السلطان يوصيهم خيرا بالأمير يشبك .

وأما ثورات الجلبان فيما بينهم فقد ثاروا في جمادي الأولى سنة ٨٨٣ هـ حتى تنازعوا بالسيوف ، وغضب السلطان ورمى النمجاه والترس من يده ونزل من القلعة وتوجه الى شطانوف، وعندما علم الجلبان بنزول السلطان من القلعة ، سكنت الفتنة وتوجهوا اليه يرجونه في العودة الى القلعة ولكنه لم يعد الا بعد جهد كبير ، ثم ثاروا مرة أخرى وعزموا على قتل مقدم المماليك ولكنه فر منهم واختفى وقاموا بحرق باب الزردخاناه . وفي عام ٨٩١ هـ وقف المماليك الجلبان للأمراء عند سلم المدرج وطلبوا منهم أن يبلغوا السلطان بأن يوزع عليهم النفقة ورجوا الأمير أقبردى الدوادار أن يطلب من السلطان أن ينفق عليهم مكافأة لهم على انتصارهم على العثمانيين ، وأبلغ أقبردى رغبتهم للسلطان ولكنه رفض وثار الجلبان حتى هرب الأمراء ما في مخازنهم وغلقت الأسواق ولم يتمكن القضاة من الطلوع الى القلعة لتهنئة السلطان بالشهر ، وذهب الأتابك أزبك الى السلطان وطلب منه الاتفاق عليهم ووافق السلطان في آخر الأمر ولكن بشروط أن يعطى كل مملوك خمسون دينارا ونودى بالقاهرة بأن النفقة تكون أول العام الجديد وهدأت الفتنة وأملى المماليك

شروطهم على السلطان عندما بدأ يوزع عليهم النفقة ورضخ السلطان . وفى عام ٨٩٢ هـ ثار الجلبان وغضب السلطان وطلب زعماءهم وقال لهم « ان كان مقصدكم قتلى فدونكم ذلك » وتم الصلح ولكنهم سرعان ماثاروا بعد انصرافهم من عنده وأشيع أن السلطان يريد الفرار بنفسه منهم الى جهة غير معلومة ، وفى عام ٨٩٤ هـ اضطر السلطان أن يجمع القضاة الأربعة وأن يعرض عليهم خلو الخزائن من الأموال وتهديد الجلبان بالثورة العارمة وتم الاتفاق على فرض أجـرة شهرين على الأملاك والأوقاف بمصر والقاهرة مساعدة للسلطان فى النفقة على الجلبان وشرع فى جمع الأموال فعلا . وليت الأمر اقتصر على ما فرض من مال فقط بل جمع السلطان القضاة وعرض عليهم أن ما صرف على الحملات الحربية بلغ سـبعة آلاف ومائة وخمسة وستين ألف دينار وطلب من الأمراء أن يختاروا من يولوه وعزل نفسه ولكنهم رفضوا واستدعوا الخليفة العباسى الذى بايعه مرة ثانية ، وبعد ذلك عمل السلطان على جمع المال المطلوب للنفقة وفرض على المماليك القرانصة (١) وأولاد الناس الذين لم يسافروا فى الحملة ضد العثمانيين بعض المال أيضا . وغضب العوام مما فرض على الأملاك وأرادوا قتل الشيخ شهاب الدين أحمد الشينى عندما أشيع عنه أنه كان السبب فى اقتراح فرض تلك الأموال عـلى الأملاك . وثار الجلبان مرة أخرى عند جلوس السلطان لتوزيع

(١) المماليك القرانصه : احدى فرق الجيش المملوكى .

النفقة وغضب السلطان وقام من فوق الدكة وهـددهم بترك السـلطنة والذهاب الي مكة ، وأثناه الأمراء عن عزمه وبعد ذلك وزع عليهم النفقة استعدادا للسـفر لمحاربة العثمانيين .
وازداد احتياج السلطان للأموال بسـبب الحرب مع العثمانيين وجمع القضاة بقبة يشبك وعرض عليهم ما وصلت اليه الأحوال مع العثمانيين وأن استيلاءهم على مقاطعة حلب سيسبب الضرر للدولة كلها وأن المماليك الجلبان يطلبون النفقة وطلب منهـم الموافقة على فرض أجرة سنة على الأوقاف والأمـلاك بمصر والقاهرة وتقرر أخيرا فرض أجرة خمسة أشهر بالاضافة للشهرين السابق فرضهما وتشدد السلطان فى جمع الأمـوال ، ولحق الناس من ذلك غاية الضرر . وفرضت مثل تلك الأجـور على تجار الشام والاسكندرية ودمياط . وفى عام ٨٩٨ هـ ثار الجلبان وأغلقت الأسواق والدكاكين ونهبوا من دار قانصوه خمسمائة أثناء غيابه. وكانت آخر ثورات الجلبان فى ذى القعدة سنة ٩٠١هـ عندما ثار مماليك قانصوه خمسمائة وحاصروا أقبردى ولـم يذعنوا لأوامر السلطان الذى جلس بالمقعد بباب السلسـلة بل صمموا على قتله ولما بلغه الأمر ترك المبيت وفى الصباح وجـد ثلاث نشاب فى المخده فكتم الأمر ويبدو أن هذا الحادث هـز السلطان وكان فى سن الشيخوخة فأصابه اسهال مفرط وحمى فمرض وهو المرض الذى توفى فيه واسـتراح من ثورات الجلبان .

أما ثورات الجلبان ضد الشعب فقد اعتدوا فى ذى القعدة سنة ٨٨٧ هـ على دكاكين التجار وأخذوا كل شيء غصبا بدون مقابل . وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٨ هـ ذهب أحد الجلبان الى سوق الشرب (الملابس) ليشترى ثوبا بعلبكيا ، وتعالى على التاجر وضربه وأخذ الثوب وشكاه التاجر للأمير برسباى قرا ولكن رفاقه ثاروا وعزموا على حرق الشرب وأخلوه من التجار وثاروا على برسباى قرا واستطاع الأتابك أزبك أن يصلح بينه وبين الجلبان بعد أن نهبوا داره وأحرقوه كما نهبوا الرباع المجاوره لها وأحرقوها أيضا وتعدوا على المدارس فنهبوا البسط بالمدرسة الأبوبكرية والفخرية حتى أخذوا قناديلها وتعتبر هذه أول ثورة من الجلبان ضد القاهرة .. وتعدى الجلبان على البدرى بدر الدين بن مزهر المحتسب وعزموا على حرق بيته ولكنه اختفى وكان سبب ذلك تسعيرة اللحوم والخبز والجبن وغيرها ، وتوجهوا الى الشون وكسروا أبوابها ونهبوا مافيها من شعير وقمح ولم تنج منهم حتى شون السلطان والأمراء . ولما بلغ السلطان ذلك أرسل جماعة من الخاصكية ومقدم المماليك ولكنهم عجزوا عن ردعهم فاضطر السلطان الى الركوب بنفسه وعندما رأوه هربوا وتوجهوا الى دار الصاحب قاسم ونهبوها ، واستمرت ثورتهم الى اليوم التالى ، ولم يتمكن أحد من المباشرين الصعود الى القلعة ،

وتوسل كاتب السر لدى السلطان لكى يعفى ابنه من الاشراف على الحسبة .

النزاع بين الأمراء :

ظل النظام المتبع فى العهد السابق لحكم قايتباى بالنسبة للأمراء ووظائفهم ومخصصاتهم قائما ، وكان السلطان منحازا انحيازا واضحا للأمير يشبك من مهدى الدوادار فقد جمع كل سلطات الدولة فى يده ، وغض نظره عن كل الأصوات التى ارتفعت ضده ، بل وخاصم الجلبان بعد موقفهم العدائى السافر منه ، وكما كان يرعاه حيا ظل وفيا لذكراه بعد موته على الرغم من هزيمته ضد حسن الطويل وقتله . وكذلك أخذ السلطان يغدق الوظائف على بعض الأمراء مع صغر سنهم كما حدث للأمير جانم أحد أقاربه وغيره . وتميز عصر قايتباى كما تميز غيره بالنزاع بين الأمراء وجندهم مما كان يشكل خطرا كبيرا واضطرابا فى الأمن ، فضلا عما كان يقع بين الأمراء أنفسهم من مشاحنات ، كان بعضها لأسباب تافهة ، ومن أمثلة ذلك ما حدث بين تغرى ططر وبين الأتابك أزبك أثناء لعب الكرة عندما زاحم فرس ططر فرس الأتابك أزبك عدة مرات مما اضطر أزبك الى أن يضربه بالصولجان على ظهره وتدخل الأمير جانى بك قلقيسيز فى الأمر واضطر الأتابكى أزبك الى أن يترك اللعب وينزل الى منزله غاضبا وسبب ذلك الكثير من الضيق للسلطان .

ومن ذلك ما وقع بين الأمير يشبك وبين الأمير خاير بك من جديد فى حضرة السلطان صحصاح الكاشف بالفيوم وكان سبب النزاع متعلقا بأرض خاير بك هناك وتعصب لصحصاح الأمير يشبك وكانت فتنة بين الاثنين . ومن أمثلة النزاع الذى حدث بين مماليك الأمراء ما حدث بين مماليك أقبردى الدوادار وبين مماليك أزدمر أمير مجلس وقد وقعت بينهما فتنة بميدان الرميلة وشهروا الأسلحة على بعضهم وانضم بعض المماليك السلطان الى مماليك أقبردى وكاد الأمر يخرج عن الحد . وحتى أقبردى الدوادار لم يسلم من مماليكه فقد ثاروا عليه وحاصروه فى داره وطالبوه بزيادة المرتبات ، ولولا تدخل السلطان وارساله الوالى الذى قبض على جماعة منهم لأصاب أقبردى مكروه ، استطاع الوالى أن يقبض على بعضهم وضربهم بالمقارع وقطع أيدى البعض الآخر وهرب الباقون والتجأوا الى الجامع الأزهر واعتصموا به أياما ، ثم آل أمرهم فى النهاية الى نفى بعضهم الى قوص والبعض الآخر الى الشام . ولعل أكبر الفتن بين الأمراء وتعصب مماليك كل فريق منهم للآخر ما كان بين قانصوه خمسمائة أمير آخور كبير (٢) وبين أقبردى الدوادار فقد بدأت الفتنة بينهما ، ولما سافر قانصوه قام المماليك بنهب داره عن آخرها ، فلما عاد وعلم بذلك ازداد العداء بينه وبين أقبردى

---

(٢) امير اخور : المشرف على اصطبل السلطان او الامير .

حتى قام قانصوه خمسمائة على رأس الجند الذين تجمعوا عنده وساروا جميعا الى منزل الأتابكى أزبك بالأزبكية ، واختلفت الآراء عن هذا التجمع أهو موجه ضد السلطان أم ضد الأمير أقبردى ، وخشى المقربون من السلطان أن يكون ذلك موجها اليه ،واضطر السلطان الى النزول الى باب السلسلة وجلس فى المقعد المطل على ميدان الرميلة (٣) وعلق الصنجق السلطانى ونودى فى العسكر أن من كان فى طاعة الله والسلطان يذهب الى الرميلة ويقف تحت الصنجق السلطانى وذهب الجميع واجتمعوا بالرميلة ، بلغ نداء السلطان من بالأزبكية وهرعوا الى ميدان الرميلة ووقفوا تحت الصنجق السلطانى ، ولم يبق فى الأزبكية الا مماليك قانصوه خمسمائه وذهب الأمير أزبك اليوسفى وطلب من الأتابكى أزبك التوجه لمقابلة السلطان ، ولما غاب فى القلعة توجه قانصوه خمسمائة الى جهة غير معلومة وانتهت تلك الفتنة . ويبدو أن قانصوه خمسمائة الذى كان يشيع بخبر موت السلطان عندما أصابه مرض قبل تلك الفتنة بقليل كان يرغب فى الاستيلاء على السلطنة ، فقد جدد سور باب السلسلة وأنشأ به المقعد المطل على ميدان الرميلة والمبيت وأنشأ حوله عدة أبراج . واستقر الأمر للأمير أقبردى وأخذ يقبض على رجال قانصوه خمسمائة ويسجنهم وينفيهم وصار

(٣) ميدان الرميلة : هو ميدان صلاح الدين بحى القلعة .

صاحب الحل والعقد فى الدولة ، وكافأ رجاله بتفريق الأضحية حتى أنها زادت على ما كان يفرقه السلطان • وأما الأتابكى أزبك فقد طلب من السلطان أن يتوجه الى مكة لكى يتفادى غضب الجلبان الذين عقدوا العزم على قتله وترك الأتابكية بعد أن ظل فيها نحوا من سبعة وعشرين عاما • ولم يقتصر الأمر عند ذلك الحد فسرعان ما ثارت الفتنة مرة أخرى بين المماليك الجلبان من أتباع قانصوه خمسمائة الذين حاصروا أقبردى الدوادار فى منزله ، وتطاولوا على السلطان ، وحاولوا اغتياله ، وكان من سبب تلك الفتنة مرض السلطان ذلك المرض الذى توفى فيه • ويبدو أن النزاع على الوظائف الكبيرة فى الدولة كان من أكبر الأسباب فى النزاع بين الأمراء كما كان للغيرة ورسل السوء أكبر الأثر فى تزكية تلك الخلافات •

ثورات العربان :

لم تكن ثورات العربان فى عهد قايتباى حديثة عهد على المماليك ، والواقع أن جذور ثورات العربان ترتد الى أوائل عهد دولة المماليك البحرية عندما حاولوا هدم تلك الدولة من أساسها وظلوا طوال حكمها وحكم دولة المماليك الجراكسة يتحينون الفرص للتخلص من المماليك الذين كانوا ينظرون اليهم على أنهم أقل منهم باعتبار أنه قد مسهم الرق وأن العرب هم أصحاب البلاد ، وقد أقحم العرب أنفسهم فى كل ما كان يمكن أن

يودى الى القضاء على الدولة المملوكية ومن ذلك اشتراكهم فى مؤامرة الخليفة المتوكل على الله العباسى الذى كان يرغب فى تفويض حكم السلطان برقوق . وكانت ثورات العربان ـ وهم من صميم الشعب ـ فى عهد قايتباى أكثر ضراوة من أى عهد مضى، حتى أنهم طمعوا فى دولة الأتراك وكادت تنتهى على أيديهم لولا القسوة التى استعملها أمراء قايتباى مثل يشبك وأقبردى فقد نكلا بالعرب واستعملوا معهم كل وسائل التعذيب حتى دفنوا بعضهم أحياء وكلها وسائل أقل ما يقال عنها أنها بعيدة كل البعد عن الانسانية وشملت ثورات العربان فى عهد قايتباى الوجهين البحرى والقبلى على السواء .

تحالف عربان البحيرة فى سنة ٨٧٢ هـ على الخروج على طاعة السلطان وثاروا واحرقوا بيادر (٤) القمح ونهبوا بلاد المقطعين وأرسل السلطان اليهم حملة وعين السلطان شيخ العرب صقر فى مشيخة عربان البحيرة وعزل كاشف البحيرة ، ثم كانت أنباء هزيمة العسكر المصرى على يد شاه سوار ، وانصرف السلطان مؤقتا عن أمر العربان . ولما استنجد الأمير يشبك جن وكان بالبحيرة بالسلطان ضد عربان لبيد أرسل له حملة بها عدد كبير من الأمراء بقيادة الأتابكى أزبك . وفى سنة ٨٧٧ هـ ذهب الأتابكى أزبك الى البحيرة وعاد ومعه عدد من العربان مكبلين

(٤) البيادر : الاجران .

بالحديد فأمر السلطان بسجنهم فى سجن المقشرة • وفى شوال سنة ٨٩١ هـ أرسل السلطان حملة الى البحيرة لقمع فتنة محمد الجويلى ودارت بين الطرفين معركة كبيرة قتل فيها عدد كبير من الطرفين ولم يتمكن الجيش من الجويلى وعادت الحملة كما سافرت • وأرسل السلطان حملة أخرى بقيادة الأمير أقبردى عادت فى جمادى الآخرة سنة ٨٩٥ هـ •

عصى عرب الشرقية مثل زملائهم فى جميع أنحاء الدولة وقد أرسل لهم السلطان قايتباى حملة فى سنة ٨٧٢ هـ وعلى الرغم من أن السلطان خلع فى سنة ٨٧٥ هـ على شيخ عربان الشرقية بقر بن بقر وقرره فى مشيخة الشرقية بدلا من ابن عيسى بن بقر الذى سجن فى سجن المقشرة بعدما ضرب بين يدى السلطان فان ثورات عربان الشرقية ظلت مستمرة بدليل ارسال حملة بقيادة الأمير حاجب الحجاب والأمير قانصوه الخسيف الاينالى وأمرهما السلطان بالقبض على كل من يجدونه من بنى سعد وبنى وائل ، وعاد الأمير تمر فى صفر من العام التالى بعد أن قبض على المفسدين من العربان وأمر السلطان بقتل جماعة ممن قبض عليهم • ولما وصل الخبر الى الشرقية ثار العربان ثانية وقطعوا الطرق وأخذوا يسلبون ثياب المسافرين ، وبلغ الاستهتار والجرأة بهم أن هجموا على القاهرة حتى وصلوا الى الحسينية ونهبوا الدكاكين وسلبوا الناس ثيابهم ، ولما بلغ السلطان ذلك

أرسل حملة حشد فيها كل قواده وأمراء الدولة وخرجوا مسرعين للقضاء على ذلك العبث ، وقد عاد الأتابكى أزبك ومعه بعض العربان فسجنوا فى سجن المقشرة ، وظل الأمراء مقيمين فى الشرقية لردع المفسدين . وتكرر هجوم عربان الشرقية على القاهرة فى شعبان سنة ٨٧٩ هـ وبلغت بهم الجرأة أن نزعوا ثياب أحد الأمراء العشرات ، ووصلوا الى قناطر الأوز . ويبدو أن عربان غزالة حذوا حذو زملائهم عربان الشرقية فهجموا على الجيزة فى ذى القعدة سنة ٨٧٩ هـ ونهبوا خيول المماليك وقتلوا بعض الغلمان وأطلقوا سراح المسجونين بسجن الجيزة ، استاء السلطان عندما سمع تلك الأخبار وأرسل عددا من الأمراء ولكنهم لم يظفروا بأحد من العربان المغيرين . وأراد السلطان أن يرهب العربان فأمر بقتل عمر بن أبى الشوارب فى المحرم سنة ٨٨٠ هـ بعد أن ضرب بالمقارع بين يديه فشهر على جمل وقتل بقليوب ، كما شنق عددا من مشايخ العربان بالشرقية .

أما عرب الصعيد فكانوا أكثر ضراوة من عربان الوجه البحرى وقد كثر شرهم وزاد عن الحد وأرسل اليهم السلطان الحملة تلو الأخرى ففى سنة ٨٧٢ هـ أرسل اليهم حملة بقيادة الأمير يشبك الدوادار وعاد فى جمادى الأولى سنة ٨٧٣ بعد أن نهب بلادهم وأسر منهم ومن أولادهم عددا كبيرا وقيل انه أحضر منهم نحو أربعمائة امرأة وقد مات منهن عدد كبير من الجوع ،

وقد انتقم العربان لنسائهم فنهبوا المسافرين وعاثوا فى الأرض فسادا ، وكان الأمراء ينتهزون فرصة سفرهم الى الصعيد للحصاد ويوقفون العربان عند حدهم ففى عام ٨٧٤ هـ ظل يشبك بالصعيد سبعة أشهر ونكل بالعرب حتى قيل انه ارتكب من أنواع العذاب مالا يوصف فشوى بالنار وسلخ الجلود ودفن احياء وغير ذلك وكافأه السلطان على ذلك وتعددت حملات يشبك وسفره للصعيد بسبب العربان فسافر سنة ٨٨١ هـ للقضاء على أولاد ابن عمر ولكنه عاد ولم يظفر بهم ، واستطاع أن يقبض على يونس بن عمر عندما حاربهم فى العام التالى وبعد أن انتصر يشبك على بنى عمر قتل يونس وبعث برأسه الى القاهرة . وعاد يشبك ومعه جماعة من بنى عمر ولما وصل القلعة أمر السلطان بشنقهم على باب زويله وكانوا سبعة وقد تأسف عليهم الكثير من الناس لأنهم على حد قول ابن اياس « كانوا خيار بنى عمر ولكن كان للأمير يشبك عليهم ثأر قديم فافتضه » . وظل فساد بنى عمر مستمرا وظلت حملات السلطان توجه اليهم حتى عين السلطان فى ذى القعدة سنة ٨٩٨ هـ داود بن سليمان من أولاد بنى عمر وأمير عربان هوارة فى امرة الوجه القبلى ثم عين الأمير يشبك الدوادار أميرا على هوارة عوضا عن الأمير أحمد بن عمر ولم يحدث أن تولى أحد الأمراء امرة العرب قبل ذلك . وبعد أن عين السلطان داود بن سليمان أميرا على عربان

هوارة سرعان ما غضب من بنى عمر وأرسل اليهم الأمير أقبردى الدوادار الذى قبض على جماعة منهم فى ربيع الآخر سنة ٨٩٠ هـ وسجنهم فى البرج بالقلعة . والواقع أن العرب انتهزوا فرصة انشغال الجيوش المملوكية بقتال العثمانيين وأرادوا احراج الدولة المملوكية التى قاسوا على يديها الكثير وبلغ السلطان فى رجب سنة ٨٧٣ بأنهم قالوا « ان مصر ما بقى بها من الجند الا قليلا »وطمعوا فى الدولة فأمر السلطان لمن بقى فى القاهرة من الجند بأن يركبوا فى كل يوم أحد وأربعاء ويسيروا الى جهة المطرية ويعودوا ويشقوا القاهرة وفى أوساطهم السيوف والتراكيش (٥) وهم على ظهر خيولهم اظهارا لهيبة الدولة .

السلطان وأولاد الناس :

أطلق على أبناء الأمراء اسم « أولاد الناس » وكان يشاركهم فى هذا اللقب أولاد السلاطين الذين كانوا يلقبون عادة « بالأسياد » ، وقد أعطى أولاد الناس المرتبات كما منحوا الامرات بما يتبعها من اقطاعات . قاسى أولاد الناس الكثير فى عصر قايتباى حتى أن بعضهم رغب فى ترك مرتبه مما كانوا يلاقونه من تأنيب السلطان فلما عرض السلطان فى رجب سنة ٨٧٢ هـ العسكر الذين كان يعدهم لحرب شاه سوار ، طلب من أولاد الناس السفر الى الحرب أو تعيين بديل عنهم أو مائة

(٥) **التركاش :** الجعبة التى يوضع فيها السلاح .

دينار عوضا عن ذلك البديل • وفى صفر سنة ٨٧٣ هـ أوقف السلطان صرف مرتبات أولاد الناس وأحضر اليهم قوسا ثقيلا ومعه نشابة طومار وطلب منهم سحب القوس والنشابة وكان يقطع مرتب من لم يستطع أن يجذب القوس والنشابة ، وقاسى أولاد الناس من ذلك كثيرا ونزلوا من القلعة فى حالة يرثى لها بسبب قطع مرتباتهم من جهة وتأنيب السلطان لهم من جهة أخرى • وحدث مثال ذلك عندما جلس السلطان على الدكة فى الحوش السلطانى فى ربيع الأول سنة ٨٧٣ هـ لتفرقة المرتبات وأحضر ثلاثة أقواس على ثلاث درجات من القوة وطلب من أولاد الناس جذب الأقواس فمن جذبها يصدر اليه الأمر بالسفر الى الحرب ، ومن لم يستطع يقطع مرتبه أو يحمل مائة دينار عوضا عن بديل للسفر • أعاد السلطان لأولاد الناس فى رمضان سنة ٨٧٤ هـ نصف ما سبق أن أخذه منهم تلقائيا بدون وساطة أو شفاعة من أحد • وفى صفر سنة ٨٧٧ أمر السلطان أولاد الناس بأن يلعبوا الرمح بين يديه على سبيل الامتحان وقاسوا من ذلك الكثير وأنب السلطان بعضهم • وفى جمادى الأولى سنة ٨٨٢ عرض السلطان جماعة من أولاد الناس واختار بعضهم وأنعم عليهم بوظائف فى الدولة •

السلطان والفقهاء (المتعممين) :

هم طبقة المثقفين وهم من صميم الشعب ، ويسمون فى

المصطلح بالفقهاء أو المتعممين ، قاسوا كثيرا فى عهد السلطان قايتباى ، ففى ربيع الأول سنة ٨٧٢ قطع السلطان مرتباتهم وفعل بهم مافعله بأولاد الناس وصادرهم وفى سنة ٨٧٣ عندما تولى يشبك من مهدى منصب الوزارة قطع مرتبات اللحوم التى كانت للفقهاء باذن من السلطان ، وزاد يشبك فى التنكيل بهم وأراد أن يسترد منهم ما أخذوه فيما مضى ، وتم كل ذلك على يد قاسم شغيته نائبه .وبعد قطع اللحوم عنهم أصبحت لاتصرف الا للمماليك .

سبق القول بأن بعض الفقهاء وقف للسلطان وقفات مشرفة وجريئة وامتنعوا عن الافتاء على هوى السلطان ومنهم شيخ الاسلام أمين الدين الأقصرائى الذى رفض الافتاء للسلطان فى الاعتداء على أوقاف المساجد والمدارس أثناء حرب شاه سوار وكذلك أثناء حرب حسن الطويل . وموقف الاقصرائى هذا ليس سوى رمزا لانتصار الفقهاء على طمع السلطان وبطشه ، هذا وقد سبق التنويه عن موقف الشيخ سراج الدين العيادى الشافعى عندما تحدث مع السلطان حديثا طويلا حثه فيه على عدم اهانة القضاة . وقد غضب السلطان من الاقصرائى والعيادى وان أخفى ذلك . وضرب السلطان بكلام العيادى عرض الحائط وأهان القضاة فى أحد مجالسه كما سبق القول .

وعندما أراد السلطان أن يأخذ على الأملاك أجر سنة كاملة

معجلا عارض القاضى المالكى عبد الغنى بن تقى السلطان وأوضح أن أجره سنة كاملة سوف تثقل كاهل الناس وان كان ولابد فليكن أجره خمسة أشهر مضافة الى الشهرين السابق أخذهما ، ولم يوافق السلطان فى بادىء الأمر ثم اضطر الى الرضوخ لأمر القاضى المالكى . وعلى الرغم من هذه المواقف المشرفة فهناك بعض القضاة ساروا فى فتواهم على هوى السلطان مثل الشيخ شهاب الدين أحمد الشيبنى عندما أفتى السلطان بجباية أجرة شهرين مقدما ، ولم ينج من ثورات العوام ضده .

الشعب :

المقصود بالشعب فى العصر المملوكى هو جميع سكان البلاد من غير جنس المماليك وطبقتهم ، ويدخل فى ذلك التجار ، والمثقفون والعناصر العربية التى حاز بعضهم الاقطاعات بالتزاماتها الحربية . واعتبر السادة أبناء الخلفاء من الشعب مع سمو مركزهم الأدبى ، وأما العوام أو العامة فأطلقت على جميع الرعايا من سكان المدن باستثناء رجال القلم ، وأطلق على الأثرياء من التجار اسم بياض العامة والسواد الأعظم من الشعب ممن يقلون عنهم ثروة فهم دونهم ، ثم هناك الحرافيش أو الزعر أو الزعار أو العياق (٦) وهم أدنى مراتب الشعب ، وليس لهم عمل ثابت

(٦) المقصود بهم الدهماء والرعاع وضعاف الخلق .

أو محدود وكان هؤلاء ينخرطون فى منـــاسر الحرامية وكثيرا ما كان يستعملهم الأمراء ضد منافسيهم ، وكان العماد عليهم فى الثورات الشـعبية • ومن طبقات الشعب العرب أو العربان ثم هناك الفلاحون المشتغلون بالزراعة فى القرى ، تلك هى طبقات الشـعب فى العصر المملوكى ، وكان العـبء الأكبر من ظلم السلاطين والمماليك يقع عليهم ، قاسوا الكثير من المحن ، قاسوا من اعتداء الجند والأمراء ، ومن تغير العملات ومن انتشـار الطواعين ومن فرض الضرائب الباهظة لتجهيز الحملات الحربية ولينعم السـلاطين والأمراء بالعيش الرغـد • وكان لارتفـاع الأسعار أثر كبير فيما أحس به الشعب من ضائقة •

أرسل السلطان عدة حملات حربية الى الأطراف الشـمالية للدولة وقد كبدته أموالا طائلة ، اضـطر معهـا الى أن يفرض الأموال الباهظة على التجار والمتسـببين ، طلب السـلطان من كسباى المحتسب ، أن يجمع أعيان التجار ، وطلب منهم السلطان أربعين ألف دينار لاعداد الحملة ، وبعـد أخذ ورد بينهم وبين السلطان قرر عليهم اثنى عشر ألف دينار فى حالة اذا ما خرجت الحملة • ولنفس السبب قرر السـلطان على بطريرك النصارى ورئيس اليهود قدرا من المال • ولحق بالمقطعين بالشرقية ضرر كبير عندما قرر السلطان أخذ الخمس من خراج المقطعين بتلك

البلاد لاعداد الحملة ، وقبض على الفلاحين ليوفوا ما عليهم ، وقد جبى هذا الخمس لمدة عامين متواليين ومع ذلك لم تخرج خيول من الشرقية ولم يفلت المتسبب فى ذلك من غضب الممائيك الجلبان فنهبوا داره . ثم أحدث السلطان فى سنة ٩٠١ مكسبا على بيع الغلال وجعل على كل أردب نصف فضة . هذا بالاضافة الى ما سبق توضيحه من مصادرات السلطان التى كان هدفها الأول والأخير جمع المال . وفى الوقت الذى كان فيه الشعب فى هذه الضائقة وزع السلطان الاقطاعات الشاغرة عن الذين قتلوا فى حرب العثمانيين على الجند ، كما أنفق السلطان على المماليك أموالا طائلة عند نزول خيلهم الى الربيع . قاسى الشعب كثيرا من تصرفات بعض المحتسبين وبالرغم من أن السلطان أبطل المشاهرة التى كانت تتعلق بالمحتسب وهى نحو من ألف دينار فى الشهر الا أنها أعيدت بعد ذلك .

أحوال الأمن :

امتاز السلطان قايتباى بالحزم والضرب على أيدى العابثين، ومع ذلك فقد اضطرب الأمن فى القاهرة فى أيامه وزاد تعدى اللصوص والمنسر والزعر ليس فقط على الشعب بل تعداه الى السلطان والأسواق فقد سرقت خوند سورباى وبعض سرارى الظاهر خشقدم ما يقرب من عشرين ألف دينار من خزانة السلطان ، وتطاول اللصوص على سرقة الأضرحة فسرق أحد

اللصوص ستر الامام الليث بن سعد رضى الله عنه وعوقب على ذلك بقطع يده • وتجرأ أحد الصناع بقاعة الذهب فنقبها وسرق عدة سبائك ذهب وشرائط وقبض عليه وأعاد ما سرقه ثم عوقب بالسجن ، وسرق من الخزانة أموال كثيرة واتضح أن السارق من البوابين بقاعة الدهيشه ولما عوقب اعترف بجريمته وسجن •

أما المنسر فقد تكررت حوادثه ، هجم رجاله على قيسارية جركس وقتلوا البواب ونهبوا الدكاكين ، وسطوا على زوار الامام الليث بن سعد وخطفوا عمائمهم وسلبوا النساء والرجال ملابسهم وامتد عبثهم حتى وصل الى باب القرافة ، وتعرضت أسواق باب الشعرية وباب اللوق وسوق التجار بجامع ابن طولون للنهب وسرقت منها بضائع كثيرة • وهجم المنسر على علاء الدين بن الصابونى أثناء وجوده بتربته وأخذوا ما كان بها •

وأما العبيد فقد ازداد شرهم وصاروا طائفتين تقاتل احداهما الأخرى حتى عجز الوالى عن ردعهم ولم يكن الزعر أقل شرا من العبيد فانقسموا الى طائفتين كذلك •

ومما زاد الطين بلة وقوع بعض حوادث قتل لأفراد ولم يتمكن الوالى ولا غيره من القاء القبض على المتسببين فى تلك الحوادث •

وحتى النقود لم تخل من التزييف وشارك بعض المسئولين

فى الـدولة فى تلك الأعمال ، منهم مثقـال الطواشى رأس نوبة السقاة وشخص يقال له تمربغا من مماليك الأتابكى أزبك فوجد فى بيت مثقال آلة الضرب التى يصـنعون بها الدراهم الزغل ، وعزم السلطان على قطع أيديهما وشفع فيهما لدى السلطان وتقرر نفى مثقال الساقى الى مكة وسجن تمربغا حتى مات ، كما قرر السلطان قطع أيدى ثمانية آخرين كانوا يعملون دراهم زغـلا وكان بينهم شخص فى الثمانين من عمره ٠

ثورات الشعب :

سبق أن أوضـحت مواقف الفقهاء من السلطان وهم من ضميم الشعب كما سبق القول عن وقوف الباعة للسلطان وكيف أنه عندما حيل بينهم وبين مقابلته احتالوا حتى أسمعوا صوتهم وكيف أن السلطان كثيرا ما كان ينصفهم ويمكن أن نضيف هنا أن السـلطان كان لا يسـتطيع مواجهة ثوراتهم وقـد تكرر اعتراضـهم لمواكبه بسبب ما أصابهم من النقود الجديدة التى ضربها السلطان والتى سببت لهم الكثير من المتاعب فى حياتهم وأن السلطان كان يطلع الى القلعة من بين الترب وكان لا يشـق القاهرة خوفا من هياج العامة وحتى لا يسـمع بأذنيه سخطهم عليه ، وقد اضـطر السلطان أن يلغى المعاددة (٨) فى التعامل

---

(٨) **المعاددة والميزان** : المقصود بها تقييم النقود بالعدد وبالميزان ٠

بالعملة الجديدة التى فرضها وأصبحت تخرج بالميزان (٩) وكان ذلك فى الذهب والفضة على السواء ، وكثيرا ما تعرض العامة لمن كان سببا فى الحاق الأذى بهم عند السلطان سيما ما كان سببا فيما يقرر عليهم من أموال فقد ثاروا على الشيخ شهاب الدين أحمد الشينى عندما أفتى للسلطان بجباية الأموال على الأملاك مقدما لمدة شهرين وعزموا على قتله فاختفى وأسقط فى يده ثم توجه الى مكة وجاور بها مدة . وذكر العامة بالحمد مواقف المشايخ من القضاة الذين ساندوهم عند السلطان . هذا وقد أقحم العامة أنفسهم فى التدخل بين طوائف المماليك الثائرة وذلك لرغبتهم الملحة فى النهب والسلب فكانوا ينهبون منزل المغلوب وسرعان ما ينقلبون على الغالب اذا ما لاح أن نجمه فى أفول .

كان ارتفاع الأسعار من الأساليب التى أدت الى ثورة الشعب وكثيرا ما سمع السلطان ما ساءه من العوام واضطر فى أكثر الأحيان الى التدخل بنفسه لتخفيف وطأة الغلاء ببيع القمح من شونه بأرخص الأثمان ، وكان لسياسة الأمير يشبك أثر بعيد المدى فى ارتفاع الأسعار فكان يحتكر القمح ويبيعه بأسعار عالية ، كما كان لتنكيله بالعربان فى الصعيد أثر كبير فى عدم وصول المحاصيل الى القاهرة . وحدث فى عهد قايتباى أن ارتفع سعر القطن عام ٨٨٩هـ حتى وصل سعر القنطار الى ألف وأربعمائة

---

(٩) الاستادار : المشرف على شئون بيوت السلطان .

درهم ان وجد ، وكان لارتفاع أسعار البرسيم أثر كبير فى ارتفاع أسعار المواشى وارتفاع أسعار اللحوم بالتالى • ومن سوء ما حدث احتكار أحد الأشخاص للملح فعز وجود الملح وجفت الملاحات • وحدث فى احدى السنوات أيضا أن عز وجود الأوز والدجاج والخبز وأكل الناس خبز الذرة والدخن لأول مرة فى تاريخهم ، وكان لاضطراب فيضان النيل فى عهده أثر كبير فى ارتفاع الأسعار •

الثورات فى ولايات الدولة :

اندلعت الثورات فى أنحاء الدولة فى دمشق وحلب وحماه وجبل نابلس والجزيرة العربية ، ويرجع سبب معظم تلك الثورات الى ما كان يفرض على الأهالى من ضرائب والى ظلم الولاه ، وكثيرا ما تدخل السلطان وأمر بالغاء ما كان يفرض عليهم من مظالم • ومن تلك الثورات قيام أهل دمشق بالثورة على برهان الدين النابلسى وكيل السلطان فى جمادى الآخرة سنة ٨٨٠ هـ حتى رجموه ورموه بالسهام وأحرقوا داره ولولا تدخل نائب قلعة دمشق فى الأمر لما نجا من القتل ، وفى سنة ٨٩٨ هـ رجم أهل دمشق نائبها قانصوه اليحياوى واندلعت فى دمشق فتنة كبيرة • ثار أهالى حلب فى ذى الحجة سنة ٨٨٥ وقتلوا محمد بن حسن بن الصوا الحلبى نائب القلعة بسبب المظالم التى أحدثها ، وقتل معه فرج بن أغلبك حاجب الحجاب • وأما

ثورة حلب فى ذى القعدة سنة ٨٩٦ بين الأهالى والنائب فقد كانت ثورة عارمة ، قتل فيها من مماليك أزدمر نائب حلب سبعة عشر مملوكا وقتل من أهل حلب نحوا من خمسين ، وأحرق أهل حلب بعض أتباع النائب بالنار ، ولولا تدخل قانصوه الغورى حاجب الحجاب لدمرت حلب عن آخرها وأسرع السلطان فى ارسال ماماى الخاصكى الى حلب لمعرفة أسباب هذه الثورة العارمة . وأما عربان جبل نابلس فقد اقتتلوا فيما بينهم وقتل الاستادار (١٠) وجماعة من العربان وأرسل السلطان أقبردى الدوادار ليقضى على تلك الفتنة . هذا وكثيرا ما ثار أهالى جبل نابلس على ما فرض عليهم من ضرائب .

ثار أهالى حماه فى سنة ٨٨٢ على نائبهم قراجا الطويل ورجموه وطردوه منها وقتلوا دواداره وأحرقوه بسبب ظلمه للرعية ، وفى نفس العام ثار سيف أمير نعير وهزم نائب حماه وقتل الكثير من عسكره ولكن الدائرة دارت عليه وفر أمام ضربات نائب حماه . وفى سنة ٨٨٥ خرج على طاعة السلطان سيف أمير آل فضل بحماه وقتل بحماه وقتل أزدمر من أزبك أحد أقارب السلطان ومعه بعض أمراء حماه . وعندما وصلت تلك الأنباء لمسامع السلطان جهز حملة كبيرة وعقد لواءها للأمير

---

(١٠) **تخليق المقياس** : تعطير عمود المقياس وقاعته بالزعفران عند وفاء النيل ويكون ذلك ايذانا بفتح السد خلف قناطر السد لتوصيل المياه للخليج .

يشبك الدوادار لردع سيف أمير ال فضل ، وسر يشبك بالسفر الى تلك الجهات لكى يستريح ولو الى حين من الجلبان الذين كانوا على شـقاق تام معه ، ولرغبته فى القضاء على دولة حسن الطويل عندما هون له أحد الأعاجم أمرها لوجود خلافات بها ، وخرج يشبك وفر سـيف آل فضل الى الرها واحتمى بيايندر وتقدم يشبك لحصار الرها ثم كان من أمره أن أسر وقتل كما سيأتى تفصيل ذلك .

أما بلاد الحجاز فكثيرا ما تعرض الحجاج لغارات العربان عليهم ولم يخشوا بأس أمراء الحج والعسكر الموجودين معهم. هذا وقد وقعت بعض مظالم من الولاه سرعان ما كان السلطان يأمر بالغائها .

الأحوال الاجتماعية :

نعم بحياة الترف والبذخ والثراء فى عهد المماليك السلاطين وحاشـيتهم وكبار الأمراء وأتبـاعهم ، فكان كل منهم وكأنه سلطان مصغر ، وبعض الكتاب والتجار . وتعدت حياة الترف والبذخ القصور الى خارجها ، فالزائر لبعض ما تبقى من تلك القصور يمكنه أن يتخيل ما كانت عليه من أبهة وجـلال ، واذا كانت تلك القصـور خالية الآن فان ما تبقى من أثاثهـا وتحفها واحتفظ به فى مختلف متاحف العالم يـدل على ما كانت تزدان

به وعلى ما كان يتمتع به أصحابها من ثراء • أما غالبية الشعب فكان يكدح لينعم الآخرون •

وامتاز عصر قايتباى الذى استطال قرابة الثلاثين عاما ، بكثرة احتفالات العرس والختان وحج بيت الله الحرام والعودة من الحملات الحربية مكللين بالنصر ، ولعب الكره ، والاحتفال بوفاء النيل ، وفتح سد الأزبكية وهو حدث استجد فى عهده بعد انشاء بركة الأزبكية والقصور حولها • هذا ويبدو أنه كانت تقام حفلات عامة ينشر فيها المطربون والمطربات الذين كانوا يحيون الأفراح أيضا ومن هؤلاء المطربين الذين ذاع صيتهم وعظم أمرهم خديجة الرحابية وكانت من أعيان المغانى ولها انشاد لطيف وأصلها من مغانى العرب ثم عظم أمرها وحظيت عند أرباب الدولة ورؤسائها وكانت غاية فى الجمال حسنة الغناء وافتتن بها الكثير من الناس •

ولما ذاع صيتها خشى يشبك من حيدر والى القاهرة من تأثيرها على الناس فأمر بالقبض عليها وأمر بضربها بين يديه وأخذ منها بعض المال واستكتبها عهدا بألا تغنى ولا تحضر فى أى احتفال ونسب اليها أنها أفسدت أعيان الناس ، وبعد أن مرت تلك المحنة مرضت ثم ماتت دون الثلاثين وحزن عليها الناس •

ومن الاحتفالات بختان أولاد الكتاب ختان أولاد كاتب السر ابن مزهر فى منزله ببركة الرطلى ، وكان احتفالا بهيجا

حضره الكثير من الأمراء المقدمين والعشرات وحضره الأمير جم ابن عثمان الذى أطلق عليه مؤرخو العرب اسم الجمجمة والذى بات عند كاتب السر تلك الليلة أيضا ، وتم الختان عندما كان النيل فى ذروة الفيضان ، وأمر كاتب السر سكان البركة بأن يغالوا فى اضاءة البيوت وأرسل لكل بيت من بيوت البركة عشرة أرطال زيت ومائدة مليئة بالأكل الفاخر من نفس أكل كبار المدعوين ، وشارك سكان البركة كاتب السر أفراحه فأوقدوا كل وسائل الاضاءة حتى كادت البركة تضىء بالنور وانقلب الليل نهارا ، وخرجت البنت البكر من خدرها وبلغ أجر المركب أربعة دنانير أشرفية ، واستمر هذا الاحتفال ثلاثة أيام سويا ، واجتمع بالبركة أربعمائة مركب وأخذ ابن رحاب المغنى يطلق أغانيه من جميع مغانى البلد من رجال ونساء وشقت الزغاريد عنان السماء وأنفق فى هذا الاحتفال أموال طائلة . وكان لاشارة السلطان بأن يكون ذلك الحفل على أكبر مستوى اظهارا لهيبة الدولة أمام الضيف العثمانى أكبر الأثر فى اظهاره بهذا المظهر الفخم . وقد تغنى الشعراء بهذا الحفل وقال بعض الشعراء :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا	**حتى تباهت على الخلجان والبرك**
حفت بضوء مصابيح زهت وغدت	**تضيء في حندس الديجور والحلك**
فكان لما ثناها حسن وقدتها	**تخفى شموس الضحى فى دارة الفلك**

ومن ذلك قول الشمس القادرى :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا ... لهم دليلا لدى الظلما من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت ... عن لونها وكأن الشمس لم تغب

أما زواج قانصوه خمسمائة بابنة الأتابكى أزبك فكان زواجا تضرب به الأمثال حمل شوار العروس من الأزبكية الى منزله بقناطر السباع (قرب مسجد السيدة زينب) ما يزيد على أربعمائة حمال وصرف عليه نحوا من مائتى ألف دينار ، وعمل العرس بالأزبكية وأعدت فيه الأسمطة الحافلة ، وركب قانصوه خمسمائة من باب السلسلة وسارت أمامه الأمراء المقدمون بالشاش والقماش والخاصكية وبأيديهم الشموع الموقدة وسار فى القاهرة حتى وصل الى الأزبكية . ولم يعكر صفو هذه الليلة البهيجة سوى اعتداء الجلبان على الأمراء المقدمين وخطف الشموع من أيدى الخاصكية .

ومن احتفالات القاهرة الاحتفال بوفاء النيل واهب الحياة للبلاد وكان السلطان يهتم بذلك غاية الاهتمام وحرص المؤرخون على اثبات ذلك فى يومياتهم وجرت العادة أن يقوم الأتابك بفتح السد وتخليق المقياس (١١) ونظرا لغياب الأتابك فى معظم عصر قايتباى اما فى الخارج للحرب ضد أعداء الدولة أو فى السفر

(١١) النقره : خليط من الفضة والنحاس الأحمر بنسبة الثلثين والثلث .

فى أنحاء البلاد للقضاء على ثورات العربان ، فقد كان ينوب عن الأتابك أمير مجلس أو غيره وكان ذلك يتم بأمر السلطان. وكان المحمل يخرج فى تجمل زائد حسب التقاليد القديمة ، ولم يتأخر المحمل سوى عام ٨٧٥ حينما تأخر الى العشرين من شوال وسبق وصف الاحتفال عندما حج السلطان . وكان الاحتفال بالمولد النبوى الشريف فى القلعة وفى سنة ٨٨٨ هـ أمر السلطان باقامة الخيمة الكبيرة المدورة التى أمر بصنعها وبلغ ما أنفق عليها ثلاثة وثلاثين ألف دينار بالحوش السلطانى. وكان آخر مولد احتفل به السلطان فى سنة ٩٠١ هـ . ودأب السلطان أيضا على اقامة مواكب العيد وكانت مواكب حافلة . واستمر الاحتفال بختم قراءة البخارى لا ينقطع طوال عهد السلطان وكان أول ختم فى عهده فى رمضان سنة ٨٧٣ هـ بالقلعة وحضره القضاة الأربعة وأعيان العلماء ووزعت الصرر على العادة والخلع على أعيان العلماء . وكانت العادة أن يحتفل بختم البخارى فى مسجد القلعة ، واحتفل بقراءة البخارى من أول رمضان سنة ٨٨٢ بالجامع الأزهر نظرا لغياب السلطان وحضره القضاة الأربعة ووزعت الخلع والصرر على العادة ، ودعا الحاضرون للسلطان بسلامة العودة ، وفى عامى ٨٩١ و ٨٩٢ هـ احتفل بقراءة البخارى فى الحوش السلطانى بقلعة الجبل خلافا للعادة المتبعة .

اجتاح البلاد فى عهد قايتباى عدة طواعين توفى فيها عدد كبير من السكان وأنشئت عدة مغاسل لتغسيل الموتى ودفنهم ، وقد رثى الشيخ بدر الدين بن الزيتونى بقصيدة من الزجل أهل مصر فى طاعون سنة ٩٨٧ هـ . اجتاحت الزلازل البلاد فى بعض الأحيان ولعل أعنف تلك الزلازل زلزال ٨٨٦ وقد ماجت منه الأرض واهتزت المآذن ومالت وسمع للأرض دوى كدوى الرحا وحدثت تلك الزلزلة بعد العصر وخرج القوم هائمين على وجوههم ، ومات فى هذه الزلزلة قاضى القضاة شرف الدين موسى بن عيد الدمشقى سقطت عليه احدى شرفات ايوان المدرسة الصالحية ، وقد صلى عليه السلطان قبل دفنه ، ومات من الزلزال أيضا الزينى أبو بكر بن القاضى عبد الباسط وكان مريضا فى بيته ، فلما مال به البيت مات خوفا .

حرم السلطان على المرأة الا تلبس الا العصايب الطوال وشق الأمر عليهن أول الأمر وأضربن عن ذلك ثم لبسنها اذا ماخرجن الى الأسواق فقط ثم عدلن عنها نهائيا الى لبس ماكن عليه قبل التحريم : وكان للمرأة مركز مرموق عند السلطان فلما توفى الشيخ قلج الرومى الأدهمى شيخ زاوية السلطان بالمرج والزيات عين زوجته مكانه فى مشيخة الزاوية .

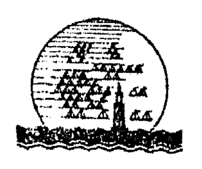
الأحوال الاقتصادية :

اهتم السلطان بالقناطر والجسور لحفظ مياه النيل وتنظيمها حتى يمكن زراعة الأراضى لامكان تحصيل الضرائب المفروضة عليها ، وكان لهبوط النيل المفاجىء فى بعض سنى حكم ذلك السلطان أثر كبير فى ارتفاع الأسعار وسبق القول بأن ارتفاع الأسعار كان نتيجة لسوء تدبير الحكام واحتكارهم لبعض الحاصلات مثل القمح ، وقد عز وجود القطن كذلك كما قام أحد الأشخاص باحتكار الملح ، على أن أكبر دافع لارتفاع الأسعار واضطراب الأحوال فى البلاد هو تغيير العملات ، ففى سنة ٨٧٣ نودى على الفلوس الجديدة بأربع وعشرين نقرة الرطل وكانت قبلا بستة وثلاثين وفى سنة ٨٧٩ ضرب السلطان فلوسا جديدة ونودى عليها كل رطل بستة وثلاثين ونودى على الفلوس القديمة كل رطل بأربعة وعشرين وخسر الناس ثلث نقودهم من جراء ذلك وكانت الفلوس الجديدة تخرج بالعدد كل أربعة أفلاس بدرهم . وفى سنة ٨٨١ هـ صرف النصف الفضة بثمانية عشرة من الفلوس القديمة وصار للبضائع ثمنان سعر للفضة وسعر للفلوس . وفى نفس العام أبطل العدد وصار الرطل من الفلوس ستة وثلاثين بالميزان ، وتقرر الا يتعامل على الفضة المضروبة الا بالميزان وكذلك الذهب ، وكانت الفضة قد خفت جدا

وقد قاسى الشعب الكثير من جراء تغيير العملة ووقفوا مرارا للسلطان الذى خشى بأسهم وأخذ يتوجه الى القلعة من بين المقابر لكى يتحاشى لقاءهم فى القاهرة وحدث أن تصدى الناس للسلطان عند عودته من قبة يشبك من مهدى فى رمضان سنة ٨٨٦ هـ بسبب الفلوس الجديدة وارتفاع أسعار البضائع ، ولما وصل الى القلعة أمر بعقد مجلس فى المدرسة الصالحية ، واجتمع القضاة الأربعة وكاتب السر وناظر الخاص العلائى بن الصابونى والمحتسب ، وأخذوا يتناقشون فى الموضوع ، وأخذ ناظر الخاص يعارض فى الفلوس العتق لأنه كان قد فرغ من ضرب فلوس جديدة عليها اسم السلطان وأراد أن يخرجها بأعلى من الفلوس العتق ، ولما علم العوام بمعارضته ثاروا عليه فى وسط المدرسة ورجموه ولولا تدخل كاتب السر لقتله العامة ، وبعد مناقشات حامية وطويلة اتفق على أن تكون الفلوس كلها العتق والجدد بالميزان بستة وثلاثين الرطل ونودى فى القاهرة بذلك ..

الفصل الثالث

العلاقات الخارجية



بلغت الدولة المصرية فى عهد المماليك الشراكسة الى أقصى اتساع لها خلال القرن الخامس عشر الميلادى • وامتدت حدودها الشمالية حتى شمال سوريا وأعالى الفرات وشرق آسيا الصغرى، وكان يسكن بجوار تلك الحدود قبائل التركمان ، وكانت تلك القبائل الخاضعة للدولة المملوكية كثيرة التمرد ، ولم يكن هناك ثمة خطر من ذلك التمرد على الدولة نفسها ، وانما كمن ذلك الخطر فى استغلال الدول المجاورة لتلك القبائل لاثارة النزاع مع المماليك ، وتتمثل تلك الدول فى تركمان الشاه البيضاء (آق قيونلو) وتركمان الشاه السوداء (قراقيونلو) ودولة الأتراك العثمانيين التى أضحت دولة عظمى فى الشرق الأوسط بعد الاستيلاء على القسطنطينية • أما البلاد التى فرضت الدولة المملوكية سيطرتها عليها عند حدودها الشمالية ، فهى ملطية والأبلستين وبلاد دلغادر وابن رمضان ودولة بنى قرمان وكثيرا ما ثارت تلك المناطق على نفوذ الدولة المملوكية بل وكثيرا

ما اندلعت الحروب بينهـا وبين جيرانها بسبب تلك الثورات .

كان للدولة المملوكية علاقات مع الدول الأفريقية المعاصرة وأشهر تلك الدول دول شمالى أفريقيه وبلاد النوبة والتكرور والحبشة وأما دول شـمال أفريقية ذات الصلات مع الشراكسة فـدولة بنى حفص بتونس ، ودولة بنى عبد الواد بتلمسـان ، ودولة بنى مرين بفاس والمغرب ، وكانت هناك علاقات مع ملوك الأندلس بغرناطة ، كما ارتبطت دولة المماليك الجراكسة والدول الاسلامية فى الهند بعلاقات .

وأما العالم المسيحى فقد كانت هناك علاقات مع الدول المسيحية خصوصا البندقية صاحبة الاحتكارات التجارية الواسعة وكان الأوربيون (الفرنج) ، الذين يمثلون القوى الصليبية ، يهددون السـواحل المصرية تهديدا مستمرا ، ولم يغب عن بالهم طردهم من آخر معاقلهم فى عـكا على يد الأشرف خليـل بن قلاوون ، وبلغت بهم الجرأة فى غارتهم الشهيرة على الاسكندرية فى عهد الأشرف شعبان بن قلاوون ، ومع استمرار غاراتهم لم ير المماليك بدا من فتح قبرص وقد تمت لهم السـيطرة عليهـا وحاولوا فتح رودس ، ودفعهم الى ذلك الحاجة للقضاء عـلى أوكار القراصنة فيهما لحماية التجارة الخارجية التى كانت تعتبر أكبر موارد الدولة المالية . وفى عهد السـلطان قايتبـاى نجح الفرنج فى بعض غـاراتهم على السـواحل المصرية خصـوصا

الاسكندرية ، ودفع ذلك السلطان قايتباى الى تحصين الشواطىء لحمايتها من تلك الغارات • وقد حاولت بعض تلك القوى المسيحية التحالف مع تركمان الشاه البيضاء ضد الدولة المملوكية وضد العثمانيين على السواء • وتعتبر العلاقات مع امارة دلغادر والشاه البيضاء والعثمانيين أهم العلاقات الخارجية فى عصر قايتباى •

العلاقات مع امارة دلغادر :

تعتبر امارة دلغادر أولى امارات التركمان ذات الشأن ، وقد اتسعت رقعة ممتلكاتها حول مرعش واتخذت الأبلستين عاصمة لها ، وظلت علاقات الود قائمة مع تلك الامارة منذ نشأتها فى عهد المماليك البحرية ، حتى كان عصر السلطان اينال فى عهد المماليك الشراكسة ، عندما اعتدى السلطان محمد الفاتح العثمانى على هذه الامارة ، واستنجد أميرها بسلطان مصر الذى لم ينجده مراعاة للعلاقات الحسنة مع العثمانيين حين ذاك • وعندما شب النزاع بين أمراء دلغادر تدخل السلطان محمد الفاتح فى شئون الامارة وناصر شاه سوار على أخيه بوداق الذى كانت تناصره مصر ، وتولى شاه سوار عرش امارة دلغادر ، وكان هذا أول خذلان للسياسة المصرية وقويت شوكة شاه سوار والتف حوله التركمان ، وخطب له فى عاصمته وضربت السكة باسمه ، ثم أخذ يهاجم أطراف الدولة المملوكية فى سنة

٨٧٢ هـ فى مستهل حكم السلطان قايتباى . وفتح بذلك باب شر كبير أدى الى ارسال ثلاث حملات ضد شاه سوار كبدت الدولة المملوكية الكثير من المال والرجال ونالت من هيبتها حتى تم القبض على شاه سوار وشنقه وتعليق جثته على باب زويلة .

صمم السلطان قايتباى على اتخاذ موقف حاسم ضد شاه سوار ليعيده الى حظيرة الدولة ، وخشى المعاصرون من تلك الحرب لما ترامى الى أسماعهم من ازدياد قوة سوار ومساندة العثمانيين له ، حتى أن ابن اياس المؤرخ كان يرى أنه فى امكان السلطان استرضاء سوار بخلعه وهدية ويقضى على أسباب الفتنة ، ولكنه « أخذ الأشياء بالغترسة فعين له تجريده ثقيلة » .

خرجت الحملة التى أعدها السلطان بقيادة الأمير جانى بك قلقسيز أتابك العسكر ، وكان معظم الجند من الخشقدمية ، أرسلهم السلطان فيما يبدو للتخلص منهم بدلا من نفيهم ، ودفعت حاجة السلطان الى المال وخلو الخزينة منه الى التعسف فى جمع الأموال وضيق على أولاد الناس وأمرهم اما السفر أو دفع بديل للسفر ، وقرر على المباشرين مبالغ معينة وبعد أن أعد للأمر عدته خرجت الحملة ، ولكن كتب لهذه الحملة الفشل الذريع ، وأسر قائدها وقتل الكثير من أمرائها وعساكرها ، وزادت شوكة سوار واستولى على عينتاب ، وتقهقر ما تبقى من

الجيش المملوكى الى حلب فى أسوأ حال وأرسل نائب الشام أزبك الى السلطان بأخبار الحملة وما حدث لها ، وانتشرت الأخبار فى القاهرة واضطربت الأحوال ، وزاد من هول الصدمة ما أشيع من أن السلطان محمد الفاتح أرسل نجدة من عسكره لمساعدة سوار . وتقوى سوار بما غنمه من الجيش المملوكى وعزم على الزحف الى حلب . وهكذا أسدل الستار على الواقعة الأولى بين شاه سوار والجيش المملوكى والتى وقعت فى يوم الاثنين ٧ ذى القعدة سنة ٨٧٢ هـ . أخذ سوار يمهد للزحف على حلب فأعد منشورا أرسله للرعية بحلب والشام ، ويمكن اعتبار ذلك المنشور من قبيل الحرب النفسية ، وقد أثبته الجوهرى المؤرخ فى كتابه .

وجاء فى أول الطرة لفظة هو ، ثم فوق العلامة وما النصر الا من عند الله ، وكتبت العلامة بقلم ثلث المظفر شاه سوار مكان علامة سلطان مصر غير أنه بقلم الثلث ، ورشت العلامة بالرمل المذهب ، ثم تحت العلامة نص الخطاب « السبب الباعث لتسطير هذا الكتاب ، والمعنى الموجب لتحرير هذا الخطاب ، أن المقر الكريم العالى المولوى الأميرى الكبيرى الزينى المظفرى (١)، أعز الله أنصاره وضاعف اقتداره ، أشار الى الأمن والأمان بالدليل والبرهان بين التجار والقوافل وأبناء السبيل وغيرهم

(١) من الالقاب التى كانت موجودة فى العصر المملوكى .

من أرباب البيع والشراء والفلاحين ، والحراثين والصادرين والواردين والمترددين بالمملكة الشامية والحلبية والطرابلسية وغيرهم من الغرباء وأهل البلاد ،بالحضور التام بين الناس والأنام الى المملكة الدلفادرية ، فمن حضروا فيها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم من غير تعارض ولا تمانع ولا تزاحم ، والله يحرسه بالملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين، بمحمد وآله أجمعين . والله على ما يقول خبير ، ومالنا من دون الله من ولي ولا نصير ، ان شاء الله تعالى . كتب فى مستهل أول ربيعين من سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة . الحمد لله وكفى . وصلى الله على محمد المصطفى » وعلى آخره فى حاشية الكتاب بمقام مدينة الأبنستين (٢) .

ولما وصل هذا الخطاب الى القاهرة ، وكانت أخبار الهزيمة قد وصلت أيضا سارع السلطان فى ارسال حملة صغيرة لصيانة البلاد الحلبية من هجوم شاه سوار عليها بقيادة الأمير أزدمر الطويل الاينالى ، وأخذ السلطان يعد العدة لتجهيز حملة ثانية وعقد مجلس بالقلعة وأبدى رغبته فى الحصول على أموال الأوقاف لينفق منها على العسكر وسبقت الاشارة الى موقف الشيخ أمين الدين الأقصرائى من السلطان وضاق السلطان ذرعا

---

(٢) الأبنستين : بآسيا الصغرى وكانت عاصمة لامارة دلغادر .

بذلك الموقف ، وتأزمت الأمور معه بسبب فرار تمربغا وكان ذلك سببا فى تأخير الحملة الثانية الى سوار .

وعلى الرغم من هذه الظروف السيئة التى حاقت بالسلطان وانتشار الطاعون فان السلطان استطاع أن يتغلب على ذلك كله وجهز حملة كبرى غادرت القاهرة فى شعبان سنة ٨٧٣ بقيادة الأتابك أزبك الذى عين باش العسكر ، ونزل السلطان تحت جنح الليل من القلعة الى أزبك ومكث عنده ساعة وودعه وقد استطاع أزبك انزال الهزيمة بسوار وعسكره وقتل مال باى الأقطع أخا سوار وكثيرا من عسكره ، وأرسلت رأس « مال باى » واثنين من أمراء سوار الى القاهرة ، طيف بها جميعا ثم علقت على باب زويلة وباب النصر . استطاع سوار بما عرف عنه من دهاء أن يستدرج الجيش المملوكى فى أماكن ضيقة تكثر فيها الأشجار ، وانقض السواد الأعظم من التركمان على العسكر المصرى بالقسى والنشاب والسيوف والأطبار ، ولم يتمكن الجيش المملوكى من التقهقر لضيق المكان وصعوبة الحركة فقتل منهم عدد لا يحصى وقتل عدد كبير من أمراء مصر والشام . وهكذا هزم جيش أزبك وعادت فلوله الى القاهرة فى حالة لا تحسد عليها ، وانتشر الذعر فى القاهرة من قوة سوار وبطشه . حدثت انتصارات جزئية على شاه سوار فى العام التالى ، أحدها على يد الأمير قرقماسى الصغير نائب ملطيه الذى هزم جيش سوار وقتل

منه فوق الخمسمائة وأسر كثيرا من أمرائه وأقاربه وكان ذلك فى صفر ٨٧٤ هـ ، وفى ربيع الآخر سنة ٨٧٤ انتصر أرسلان داود ابن ابراهيم بن رمضان المنافس لدلغادر على سوار واسترد منه قلعة سيس ، وسر السلطان لذلك الخبر وأرسل اليه خلعه .

ويبدو أن شاه سوار خشى من ازدياد نفوذ ابن رمضان ونائب ملطية فعملّ على التقرب من السلطان وأطلق سراح جانى بك قلقسيز وأكرمه وطلب منه أن يكون سفيرا بينه وبين السلطان فى الصلح .

عاد أزبك الى القاهرة ومعه اثنان من أخوة سوار ، شاه يراق أو شاه بضاع على حد قول ابن اياس وهو الأمير التابع لمصر والذى طرده شاه سوار ويحيى كاور قسيم شاه سوار فى التمرد والخروج على طاعة السلطان ، ولما مثلا بين يدى السلطان خلع على أولهما وأمر بسجن الثانى فى البرج بالقلعة ويبدو أن جانى بك قلقسيز لم يتدخل فى الصلح بين السلطان وسوار اذ على الرغم من أن السلطان رحب به عندما صعد القلعة الا أنه كان قد صدر عنه مرسوم يمنعه من دخول القاهرة وعاد هو قبل أن يدركه مرسوم السلطان الذى خلع عليه وعينه فى امرة السلاح بعد أن كان أميرا كبيرا وفى ذلك تنزيل له .

خطا سوار خطوه نحو الصلح فأرسل رسولا من عنده ، لم يسمح له السلطان فى مبدء الأمر أن يصعد الى القلعة ، ثم

أذن له بالصعود دون الهدية التى أحضرها معه ، وسلم السلطان مكاتبة سيده ، التى عرض فيها الصلح مع السلطان بشروط رفضها السلطان ، منها أن يكتب له تقليدا بامرة الأبنستين وأن ينعم عليه بامرة مائة فارس وتقدمة ألف بحلب ، وفى نظير ذلك يسلم عينتاب للسلطان ، ولما لم تسفر المقابلة عن شىء نزل القاصد من القلعة بغير خلعه ، واستأنف سوار الحرب ، وهاجم ابن رمضان سنة ٨٧٥ هـ وهزمه واستولى على قلعة اياس .

انزعج السلطان لتلك الأخبار وخشى من هجوم سوار فجأة على حلب فاتبع ما سبق أن اتبعه فى الحملة الأولى وأرسل الأمير اينال الأشقر رأس نوبة النوب ومعه حملة لحماية حلب ، وفى رجب سنة ٨٧٥ استولى سوار على سيس وقلعتها وأرسل السلطان الأمير برسباى قرا ، ليسافر قبل خروج الحملة الثالثة بقيادة الأمير يشبك الدوادار ، وهكذا انتهت الحملة الثانية التى كتب فيها النصر الجزئى فى أول الأمر ثم الهزيمة الساحقة بعد ذلك .

خرجت الحملة التى أحسن السلطان اعدادها فى شوال سنة ٨٧٥ بقيادة الأمير يشبك الدوادار أقدر رجال الدولة آنذاك والذى تجمعت فى يديه كل السلطات ، وقد فوض له السلطان أمور البلاد الشامية والحلبية وغيرها من البلاد وجعل له الولاية والعزل فى جميع أحوال المملكة وكتب معه خمسمائة علامة ويكتب

(أى علامة السلطان على بياض) وجعل له التصرف فى جميع النواب والأمراء الانائب الشام ونائب حلب فقط ، وكان لخروجه يوم مشهود ، واستمرت الحملة تخرج الى قرب الظهر ، وشقوا القاهرة وخرجوا من باب النصر وتوجهوا الى مقر القيادة بالريدانية ، ونزل السلطان للمخيم مرتين ، وظل فى المرة الثانية من بعد العشاء حتى قرب الفجر . ثم رحل الأمير يشبك من الريدانية قاصدا السفر ، ثم خرج العسكر أفواجا أفواجا حتى سد الفضاء ، وقد أحسن اختيار العسكر فكانوا من أعيان الشجعان وتفاءل الناس وحقق الله ظنهم . وبينما الحملة فى طريقها الى بلاد سوار ، اذ وردت الأخبار فى المحرم سنة ٨٧٦ هـ بأن سوارا قتل قرقماس الصغير نائب ملطيه الذى سبق له أن هزم شاه سوار ، وأخذ ينتقم منه فقيل انه أوقفه فى مكان وبنى عليه حائطا وقيل بل علقه فى شجرة واستمر ينشبه بالنشاب حتى مات . ومر يشبك فى طريقه الى الشام بسرياقوس وبلبيس والخطارة والصالحية ثم الى العريش وغزة ودمشق ، وانضمت له القوات الشامية وأمراء التركمان الموالون للسلطنة ، ومنهم بعض أفراد من أسرة دلغادر .

حاصر يشبك قلعة عينتاب وهزم سوار واستولى عليها فى صفر سنة ٨٧٦ وفر شاه سوار بأولاده وأخوته ونقلهم الى قلعة زمنطو وتحصن بها ،ويرجع السبب فى سقوط عينتاب الى

شدة الحصار واحكام تصويب الهدف ، ولما أدرك المحاصرون بالقلعة أنها مأخوذة لا محالة أرسلوا فى طلب الاستسلام ، ولم يكن لهم شرط سوى اعطائهم الأمان وأن يعطوا رزقا يقـــوم بأودهم ، وتم لهم ما أرادوا وسلموا القلعة ، وأمر يشبك بترميم القلعة ونقش عليها اسم السلطان وشحنها بالمؤن من قمح وشعير وملأها بالذخيرة من مختلف أنواع الأسلحة • وساءت أحــوال ســوار وأخذ يشبك يستولى على البـلاد فاستولى على أدنه وطرسوس وطهر تلك البقاع من عسكر سوار •

لم تنقطع أخبار الحملة عن السلطان قايتباى بل كان يشبك يرسل اليه الرسول تلو الآخر ، وارســـل اليه أحدهم ليخبر السلطان بما حدث وأن سوار قد انفض عنه غالب عسكره وطلب من السلطان المزيد من النفقة ، وارسل اليه السلطان مائة ألف دينار ، وحمل الرسول الثانى خطابا للسلطان فيه أنباء المعركة التى دارت بينه وبين سوار على نهر جينون وذكر فيه أنــواع البطولات التى حدثت من الأمراء والجند وكيف أنه فر الى القلعة زمنطو وأنه توجه لحصارها وضربها بالمدافع •

ولما انصرف عن سوار عسكره ، أرسل يطلب الأمير تمراز الشمنى قريب السلطان وأرسله الأمير يشبك وأرسل معه قاضى العسكر شمس الدين بن آجا الحلبى الحنفى ، ليطلب الصـلح والعفو نظير تعهـــده بالطاعة والولاء للسلطنة ، ونظير قيـامه

بالتقادم التى جرى العرف عليها ، اشترط سوار فى نظير الدخول فى الطاعة وتسليم مفاتيح القلاع أن يظل نائبا عن السلطان فى قلعة درنده ، وأن يرسل بمفاتيحها الى السلطان صحبة ولده ، ولكن السلطان رفض وأصر على حضور سوار بنفسه لمقابلة السلطان .

ودار النقاش بين شمس الدين بن أجا مبعوث الأمير يشبك من مهدى الدوادار وبين شاه سوار ، رأينا أن نثبته بنصه من رحلة يشبك الظاهرى الذى كتبها شمس الدين بن أجا الحلبى الحنفى قاضى العسكر اتماما للفائدة :

قلت : بعد أن حمدت الله وأثنيت عليه وتلوت قوله تعالى «وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما الآية» ثم أوردت الحديث المشهور فى حق الحسن بن على عليهما السلام وأن النبى صلى الله عليه وسلم ، قال ان ابنى هذا لسيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين وصار ذلك كما قال صلى الله عليه وسلم بعد نيف وثلاثين سنة حين سلم حسن الأمر لمعاوية ، وذلك من معجزاته صلى الله عليه وسلم . وهذا الأمر قد أخذ حده وقد هلكت الرعية من غير فائدة حصلت والأولى الاذعان الى الحق وكف الأذى والأغراض النفسانية فانها ملجئة الى خسران الدنيا والآخرة .

فقال : انك قد وعظتنا وأحسنت لكن كان الأوجب عليك

أن تعظ جماعتك لأنهم ثلاث مرار يحضرون الى بعساكرهم فيردهم الله ، على أعقابهم خائبين خاسرين ويرزقنى النصر عليهم لبغيهم على .

قلت : سبحان الله أنتم تبدءون بالبغى فاذا قوبلتم بما صدر منكم تقولون بغيتم علينا ، ولاشك ولا خفاء أن مولانا السلطان خلد الله ملكه هو خادم الحرمين الشريفين والامامة لأمير المؤمنين ، وقد فوض اليه أمور المملكة ، وأنت وآباءك وأجدادك من قبلك نواب السلطنة من قديم الزمان والى الآن واذا خرجتم عن الطاعة وجب عليه قتالكم ، فهذا لا يكون من قبيل البغى والباغى لا يطلق الا على من خرج عن الطاعة المفروضة . وأما قولكم بأن الله نصركم عليهم لبغيهم فهذا أيضا ليس بدليل من وجوه منها أن الله سبحانه وتعالى تارة يبلى المؤمنين ليضاعف لهم الأجر ، ومنها أن يكون ذلك سوء تدبير منهم ومخالفة ذوى الآراء والدليل على ذلك قتلى أحد ، وكان من الحاضرين فى ذلك الوقت قاضى عسكرى ..

فقال : هذا كله بتقدير الله .

فقلت : نعم ولكن سوء التدبير كان سببا لذلك لأن العبد له الاختيار الجزوى ولولا ذلك لما استحق العقاب .

فقال : دع عنك هذا كله ، فو الله وتربة جدى ووالدى لو

تأخر أخذ القلعة خمسة أيام لكنت نصبت خيامى فى مقـــابلة خيامكم ورأيتم قتالى معكم ، فتبسمت عند ذلك •

فقال لى : مما تتبسم •

فقلت : خيرا •

فقال : تكلم •

فقلت : أتأذن لى فى الكلام •

فقال : نعم •

فقلت له : ذكرت أنك كنت تريد الحضور والقتال ولولا أخذ القلعة فأنت اذا حضرت كنت تقاتل القلعة أو الغريم • فقال: بل الغريم • قلت : الغريم حاضر ولا لك مانع من ذلك فمـــا سبب تقاعدك فسكت فلم يجب ، وعلم أنى أفحمته • فقلت له يامولانا الأمير انك طلبت شخصا تستمع مقصود الأمراء وهـــو يسمع مقصودى ، فأما مقصـــود الأمراء ان كان لك رغبة فى الدخول للطـــاعة الشريفة ، ويحصـــل لك ما ترومه من المال والاقطاع • قـــال : نعم • قلت : لا يكمل ذلك ولا يحصـــل الا بتسليم قلعة درنده • فقال : ان هذين البلدين يعنى سـيس ودرنده لابد أن السلطان نصره الله يثبت فيها شخصين ، ومن المعلوم انهما لا يقومان فى المهمات الشريفة بأكثر من مايه نفس ، وأنا أقوم فى كل منهما بخمسة آلاف نفر ويسلطنى السلطان على

أى عدو شاء وأراد فقلت : له هذا لا يمكن على هذا الوجه ، لكن ان الملوك المجاورة للمملكة السلطانية فطنوا للعجز اذا صار ذلك . وقصد مولانا السلطان خلد الله ملكه عدم ذلك والا لا يتحصل للخزائن الشريفة من الجهتين شىء ، والعذر فى ذلك ظاهر ، وأما مولانا يحصل له من هاتين الجهتين . فقال : والله لا يحصل لى غير التعب ، فقلت له : اذا ظهر أن فى عدم تسليم القلعتين المذكورتين نقصا للحرمة الشريفة ، ولا تقع لمولانا فيهما واذا سلمهما لنواب السلطنة حصلت الحرمة التى يرومها المقام الشريف ، والنفع لمولانا واقع محقق فما وجه الامتناع . وكلما أتى بحجة رددتها وجعلتها عليه فى كلام يطول، ولما يئست من فلاحه ، وعلمت أنه لا ينقاد الى الصواب فقلت فى خاطرى :

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

فقلت : قد بلغتك مراد الأمراء وجل قصدهم أن يعدوك من أنفسهم ويقولوا نحن كنا غالب السبب فى هذه الأمور التى وقعت بسبب المرحوم برد بك نائب الشام ، ولا نريد الا صداقته ولا يسرنا أن يكون أجنبيا فى خدمة الأبواب الشريفة وعداوته أحب الينا من صداقة الغير لأنه منا والينا من وجوه شتى وأملته فى المقر الأشرف أمير دوادار بكل خير ووعدته بكل جميل منه وأنه يضمن من المقام الشريف كل ما يرومه وزيادة وحصل بينى

وبينه محاورات كبيرة وانجلى الحال الى أنه قال : ان كان ولابد من تسليم القلاع لنواب السلطنة الشريفة ، فيحضر لكل قلعة نائبا ، يتسلمها بشرط أن رجالى يحفظون القلعة الى حين رجوع الخبر من السلطان والأمراء هم اخوتى يسألون صدقات مولانا السلطان فى استقرارى بالقلاع ثانيا ، ويشفعون لى ذلك ، فأردت أن أقول ما الفرق بين عدم تسليم القلعتين وبين هذه الصورة فحبست نفسى عن ذلك ، لما تحققت من عدم رجوعه عن ضلاله ، وتذكرت قول القائل :

أوضحتم الرشد فمن يهتدى وقلتم الحق فمن يسمع

فقلت له : بلغتك غرض الأمراء وما بقى الآن الا تبليغهم غرضك وبالله المستعان .

فقال : فهل أجهز معك أحد أو فيك كفاية ؟ .

قلت : بل الواجب أن تجهز من يختار ليسمع جوابهم ، وما قلت ذلك الا لما ظهر لى أنه علم بأنه ما أعجبنى هذا الكلام ، فأردت الخلاص منه وفارقته على هذا الحكم فلما رجعت الى المكان الذى نزلت به جهز الى الأمير رستم‌عمه يلاطفنى ويخاشننى فأجبت بجميع ما قال وبايعت الله سبحانه وتعالى ونزعت ثوب الخوف من قلبى وقلت له فى الآخر يا هذا انى ما جئت الا بطلب منكم وما ضمنت أنا للمقر الأشرف أمير دوادار والكفلاء بأنى أقضى لكم هذا الشغل وأخلص لكم القلاع ولاهم بعثونى متدخلا عليكم ، فان أردتم نتاج الأمر فقد فصلت لكم وان قصدتم غير

ذلك فأنتم المخيرون ، فقال لى : قصدنا أنك تجتهد فى صلاح الأمر على هذا الوجه فما وسعنى الا أن قلت أبذل فى ذلك جهدى وطاقتى .

وبعد انتهاء الحديث مد شاه سوار السماط للقاصد ، وخلع عليه خلعة من الحرير المذهب وطاستين صغارا من الفضة وعشرين أشرفيا وأرسل معه قاصدا من قبله ليسمع رأى الأمير الدوادار فيما عرضه ، وأراد شاه سوار أن يظهر قوته ويرهب القاصد فعرض عسكره واصطفوا فى طريقه وصحبوه حتى أسفل الجبل ، وتوجه هو ومعه قاصد شاه سوار الى مخيم يشبك من مهدى حيث عرض عليه ما دار من حديث ورأيه هو فيه من عدم الرغبة فى تسليم القلاع ، واستدعى يشبك القاصد وحمله رسالة جاء فيها :

« انك قلت جهز لنا من تثق بكلامه ، وسألت أن تدخل فى الطاعة الشريفة ، فأرسلنا اليك ، والدخول للطاعة الشريفة لا يمكن الا بتسليم القلاع واعادتها للحوزة الشريفة ، فان كان لك غرض تام فى الدخول فتسلم القلاع لنواب السلطة الشريفة ، وان كان غير ذلك فلا حاجة فى ارسالك القصاد والمكاتبات فلا تجهز بعدها مكاتبته ولا قاصدا ، وكن أنت مجتهدا فيما أنت بصدده ، ونحن كذلك ان شاء الله تعالى ، وهذا آخر الكلام والسلام » .

ولما لم تسفر المفاوضات عن شيء ، استؤنفت الحرب ، وحضر رسول من قبل السلطان يزيد العثماني ومعه هدية ليشبك، وشرح هذا الرسول مدى سرور السلطان العثمانى لوصول العساكر المنصورة وطلب موافاته بالأخبار وعرض الاستعداد لارسال الغلال والمكاحل ، ويبدو أنه لم يفعل ذلك الا بعد أن تأكد من الانتصار المحتم للجيش المملوكى والهزيمة لصنيعته شاه سوار .

ولكى يأمن الأمير يشبك عدم تدخل العثمانيين وصاحب العراقين لنجدة شاه سوار أرسل رسولا لكل منهما ومعه هدية تناسب المقام وأرسل الشيخ علاء الدين الحصنى للسلطان بايزيد وأرسل شمس الدين بن أجا لصاحب العراقيين .

ولما اشتدت الحرب والحصار التمس سوار الدخول فى مفاوضات الصلح مرة أخرى ، وطلب الأمير تمراز الشمسى ، فتوجه اليه ومعه قاضى العسكر ، وأعلن استسلامه على الفور ، وقال انه سيلبس خلعة السلطان ويقبل له الأرض بشرط الا يقابل يشبك خوفا على حياته من العسكر الذى أمضى فيهم قتلاه ولم يوافق تمراز على ذلك وتعهد لسوار بألا يقتل ولم يقبل سوار وعادت الحرب ، ثم طلب سوار عودة تمراز ونزل سوار من قلعته فى تفرقليل من عساكره ، وذهب الى مخيم يشبك ، فلما وصل نزل عن فرسه واستقبله يشبك واقفا مرحبا ثم خلع

عليه • ولما أراد الانصراف طلب منه أن يتوجه الى نائب الشام ليسلم عليه ويبدو أن ذلك ماتم الا ليتخلص يشبك من قسمه بعدم التعرض لسوار بأذى وحتى يفعل به نائب الشام ما فعل ، ولما دخل سوار الى خيمة برقوق أخذ يؤنبه على قتل العسكر وعلى الخروج عن طاعة السلطان ، وأمر له بخلعة وضع فيها قيدا حديديا ليوضع فى رقبته وغضب تمراز من ذلك التصرف لما فيه من حنث بما تعهد به لسوار ، وحاول رجال سوار انقاذ سيدهم ، ولكن برقوقا كان قد أعد لكل شيء عدته ، وأعد كمينا حول الخيمة أفنى رجال سوار عن آخرهم ، وحدثت مشادة بين برقوق وتمراز غضب بعدها تمراز منه ومن يشبك حتى وصل القاهرة •

وصلت أخبار القبض على سوار للسلطان ، وكتب عدة فتاوى ، أفتى فيها العلماء والقضاة بأن سوار خارجى ولا يبقى على قيد الحياة • وبعد استسلام سوار أخذ يشبك يرتب أمور الأمارة ، رحل الى الشام ثم غزة وعند وصوله الى غزة أمر السلطان بتبييض باب النصر وبابى زويلة ونقشت عليهما الرتوك الذهب ، وأعدت العدة لاستقبال يشبك ، ولاقاه رجال الدولة والعسكر عند خانقاه سرياقوسى ، ولما وصل الريدانية خرج اليه القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء وزينت القاهرة وبلغ كراء كل بيت على الشارع أربعة دنانير أشرفية وكل دكان دينارا أشرفيا

ودخل يشبك القاهرة ومعه سوار واخوته مكبلين فى الحديد ، وكان دخول يشبك القاهرة من الأيام المعدودة لاقته المغانى من رجال ونســـــاء من باب النصر الى سلم المدرج بالقلعة وتمت المراسيم بالقلعة وانتقل السلطان الى الايوان ثم انتقـــل الى الحوش وقابل سوار ورحب به وعاتبه عتابا خفيفا ثم أمر بتسليمه الى والى القاهرة وتسلم أيضا أخاه يحيى كاور الذى كان مسجونا بالبرج منذ أيام حملة أزبك وشهر بسوار واخوته فى القــاهرة ثم شنق على باب زويله وأما باقى اخوته فقد شقوهم بالسيوف ، ماعدا أخاه سلمان الذى كان صغيرا ورق له الناس وقبل السلطان شفاعة يشبك فيه .

يرجع نجاح الحملة الثالثة ضد شاه ســـوار الى شخصية يشبك وحسن تدبيره وكياسته ، فعمل على راحة الدواب والرجال أثناء قطع الطريق الطويل من القاهرة حتى موقع المعركة ، وأخذ فى رفع المظالم فى جميع البقاع التى مر بها ، وعم عطاؤه أمراء التركمان ومبعوثيهم اليه ، ولما وصل الى حلب أخذ فى تقوية نفوذ نائبها فلم يسمح لأمراء التركمان أن يأتوا الى بابه الا عن طريق نائب حلب ، وأعطـــاه مبالغ طائلة ليوزعهـــا على أمراء التركمان ، وأعاد له بذلك هيبته وهيبة الدولة .. وقد أثمرت سياسة يشبك فهرع اليه من كان بنقل له أخبار شاه ســـوار وخططه فكان يعمل على افسادها بخطط مضادة . وكان يعمـــل

مع قواده بنفسه فى تنفيذ الخطط التى وضعها . ولم يوجد خائن أو جاسوس بين رجاله .

وهكذا انتهت فتنة سوار التى كبدت الدولة المملوكية الكثير من الأموال والأرواح ، وأنزلت الهزيمة بالجيش المملوكى أكثر من مرة ، وأطمعت ملوك الشرق فى الدولة ، وطمع العرب فى مصر وكاد الملك يخرج عن الجراكسه ، وأشرف سوار على أخذ حلب ، وخطب له فى الأبنستين وضربت السكة باسمه، وذكر الشمس ابن أجا « أن الأذى الذى حصل من سوار للرعية والبلاد ، لم يحصل من تمرلنك ، وهو أن تمرلنك (٣) كانت اقامته مدة يسيره ، وهذا تطاول أذاه وتمادى الى خمس سنين » .

وسارت الأمور مع امارة دلغادر سيرا طبيعيا ، ولما زار السلطان قايتباى الشام ، مثل شاه بداق بن دلغادر وأولاده بين يدى السلطان مظهرين الولاء والخضوع وأحضر معه هدية جليلة من بينها ولداه قدمهما للسلطان ليعملا فى خدمته ولم يعكر صفو تلك العلاقات الطيبة سوى تدخل الدولة العثمانية المستمر فى شئون الاماره ، وكان هدفهم القضاء على النفوذ المصرى هناك ليخلو لهم الجو ، وكان علاء الدين الذى ولى امارة دلغادر بعد أخيه بداق صنيعة فى يد العثمانيين . فقد خرج كثيرا على

---

(٣) تمرلنك : المقصود به تيمور لنك الذى اغار على العالم الاسلامى ناشرا الخراب والدمار .

المصريين وسبب لهم المتاعب ، ولما جاءت الأخبار الى القاهرة بأن علاء الدولة الذى يسميه ابن اياس علـى دولات ، زحف الى ملطيه انزعج السلطان وأرسل حملة بقيادة الأمير أزدمر ، وخرجت الحملة فى رجب سنة ٨٨٨ هـ ، وتدخل السلطان العثمـانى فى النزاع وبلغ السلطان أنه أمد على دولات الذى شكا له تصرفات قايتباى بالجند ، فأرسل حملة ثانية بقيـادة تمراز الشمسى . وجاءت الأخبار بهزيمة الجيش المملوكى على يد على دولات ، ثم توجه وردبش نائب حلب لمحاربة على دولات وكان قد تقوى بما أمده به العثمانيون من امدادات ، وهزم العسكر الحلبى وقتل نائب الشام وكثيرا من العسكر المصرى والحلبى . وعلى الرغم من أن على دولات أخذ يطلق سراح بعض الأمراء المأسورين عنده فان السلطان أعد حملة جديدة بقيادة برسباى قرا غادرت البلاد فى ربيع الآخر سنة ٨٩٠ ، ويبـدو أن على دولات خشى بأس الحملة الجديدة فأرسل يعرض الصلح ، وفى شـوال سنة ٨٩٢ استطاع شاه بضاع بن دلغادر وكان مسجونا فى قلعة حلب أن يفر من سجنه وتوجه الى السلطان العثمانى الذى أمده بالجند وهجم على عسـكر أخيه على دولات وأسر اثنين من أولاده واستولى على أبنستين ، وسرعان ماذب الخلاف بين شاه بضاع وبين السلطان العثمانى الذى أراد قتله وفر شاه بضاع ولجـأ الى السلطان قايتباى الذى أكرم وفادته ثم أرسله الى أسـيوط وقرر له ما يكفيه . أخذ على دولات يتودد الى المصريين بعـد

هزيمته وهزيمة أحلافه من العثمانيين على يد تمراز الشمسى . وأدى موقف على دولات هذا الى صدام حتمى مع العثمانيين خرجت بسببه من القاهرة ثلاث حملات بقيادة القائد ، أزبك كما سيأتى . وبعد عهد قايتباى ظل على دولات على ولائه لمصر حتى قتله السلطان سليم سنة ٩٢١ هـ خليفة حليفه السابق .

العلاقات مع قبيلة الشاه البيضاء :

نشأت دولة الشاه البيضاء (نسبة الى الشاه البيضاء التى كانت توضع على أعلامهم) فى أراض بأرمينية وأعالى الفرات منحها لهم تيمورلنك مكافأة على انضمامها اليه ، وكانت عاصمتها دياربكر ، واتسعت أملاكها حتى شملت بلاد فارس على عهد حسن الطويل المعاصر لقايتباى . أنشأ حسن الطويل علاقات مع الدول الأوربية كان بعضها ضد المماليك والعثمانيين ، وترجع تبعية الشاه البيضاء للمماليك الى أيام برسباى فخطب باسمه وضربت السكة ، ومع ذلك فان دولة الشاه البيضاء كانت فى أغلب تاريخها معادية للمماليك .

ولما وصلت الأخبار للسلطان قايتباى باستيلاء حسن الطويل على مماليك العراق والقضاء على ملوكها ، خشى السلطان من ذلك التوسع لما فيه من تقوية مركزه ، ولكنه كان مكتوف اليدين بسبب انشغاله بحرب شاه سوار ، ويبدو أن حسن الطويل أدرك

أن ذلك التوسع لن يرضى قايتباى ، فأخذ يتملقه وينافقه وأرسل رسولا وعلى يده هدية للسلطان ورسالة جاء فيها أن ما ملكه من البلاد انما هو زيادة فى ممالك السلطان وأنه نائبه فيها ، وسلم السلطان عدة مفاتيح لعدة حصون وقلاع فأكرم قايتباى وفادة قاصده ، وحضر رسول ثان للقاهرة ومعه رأس أبو سعيد وقاصد آخر يبشر السلطان بما فعله بأبناء تيمورلنك ، وزالت موجة النفاق وظهرت حقيقة حسن الطويل بعد ما أدرك مالحق بالجيش المملوكى على يد شاه سوار فهاجم البلاد الحلبية بجيش ثقيل ، وانزعج السلطان والعسكر من ذلك ، وتقدم حسن الطويل حتى وصل الى الرها وارتعد الناس فى القاهرة وخشوا بأس حسن الطويل وصاروا يقولون « هذا ما هو مثل شاه سوار وأن هذا لا يطاق » ويبدو أن أحداث تيمورلنك كانت مازالت ماثلة فى الأذهان وسيطر الخوف خشية أن يكون حسن الطويل صورة أخرى منه ، مما جعل السلطان يفكر فى الخروج بنفسه .

جهز السلطان حملة كمقدمة لحملة أخرى بقيادة جانى بك قلقسيز ، وفى تلك الأثناء استولى حسن الطويل على عدة قلاع ، وحاول أن يؤلب شاه بداق أمير دلغادر الموالى لمصر وأرسل له مكاتبة بماء الذهب كلها تهديد يطلب فيها تسليم القلاع وأن يكون تابعا له ، وأرسل شاه بداق المكاتبة للسلطان بالقاهرة ، وعندئذ أعد السلطان الحملة الكبرى بقيادة الأمير يشبك .

واحتاج السلطان الى الكثير من المال لاعداد تلك الحملات وعقد مجلس للقضاة حضره شيخ الاسلام أمين الدين الأقصرائى الذى تحدث فيه بمثل ما تحدث فى المجلس السابق انعقاده أثناء اعداد حملة شاه سوار ، وقبيل خروج يشبك وصل للقاهرة المكاتبة التى كان حسن الطويل قد أرسلها الى نائب الشام ، وأخذ يهدد فيها وكتب فى صدرها : « يا أيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » ، ونزل السلطان الى مخيم يشبك بالخانقاه وزاره وعرض عليه مكاتبة حسن الطويل، وخرجت حملة يشبك ، وقبيل وصوله الى حلب كان نائبها قد ألقى القبض على بعض رجال الدولة وجهت اليهم تهمة الخيانة بمكاتبة حسن الطويل وأعدموا ، واستقبل يشبك فى حلب رسولا من عند حسن الطويل ومعه رسالة يطلب فيها الصلح وتبادل الأسرى ، ولم يلتفت يشبك الى هذا الطلب السابق معرفته بخداع ونفاق حسن الطويل ، وفى تلك الأثناء أرسل السلطان العثمانى يعرض على يشبك المساعدة ضد حسن الطويل الذى كان أيضا فى حالة حرب مع العثمانيين مستعينا عليهم بالبندقية التى اشتركت معه فعلا فى الحرب ضد العثمانيين ، أكرم يشبك الرسول وأرسل معه رسوله الشمس بن أجا ومعه هدية مناسبة لانشاء علاقات بين البلدين . وقعت رسالته التى أرسلها مع سفير البندقية فى يد أحد العثمانيين ، وأرسلها محمد

الفاتح الى قايتباى وكانت الخطة أن يهـــاجم الفرنج المماليك والعثمانيين من البحر ويقوم هو بالهجوم من البر ، أرسل يشبك جنده لحرب حسن الطويل وانتصر عليه عند البيره ولم يقتـــل من المصريين سوى أحد الأمراء ولم يقف الأمر بحسن الطويل عند هذا الحد بل زاد فى طغيانه وجهز محمل الحاج العــراقى الى الى الحجاز وعين شخصا يقال له رستم أميرا له وصحبته قاض وأمرهم أن يعملوا على أن يخطب له فى المدينة باســم « الملك العادل حسن الطويل خادم الحرمين الشريفين » ولما وصلوا الى المدينة ضيقوا الخناق على قضاتها وأمروهم بأن يخطبوا باســـم حسن الطويل ، ولما خرج رستم وزميله الى مكة أرسل أهـــل المدينة يخبرون أمير مكة بما حدث ، فلاقاهم قبل أن يدخلوا الى مكة وقبض على أمير الحاج العراقى والقاضى ولم يتعرض للحاج بسوء ، وأرسل رستم والقاضى للسلطان قايتباى فأمر بسجنهما فى البرج بالقلعة . وفى تلك الأثناء انتصر عسكر السلطان العثمانى على جيش حسن الطويل وسر السلطان بذلك الخبر . التمس يشبك من السلطان العودة فعاد فى رمضان سنة ٨٧٨ هـ . ولمـــا عجز حسن الطويل عـــلى محاربة جيش مصر وجيش العثمانيين أرسل فى المحرم ٨٧٩ رسولا ورسالة يعتذر فيها عما حصـــــل منه وأن ذلك لم يكن باختياره والتمس العفو ، فأكرم السلطان ذلك القاصد وأظهر العفو على الرغم مما يعلمه السلطان جيـــدا عنه .

تدخل نائب حلب فى النزاع الذى وقع بين حسن الطويل وابنه وأرسل جيشا لمساعدة ابنه الذى استنجد به ولكن قدر لهذا الجيش أن يهزم شر هزيمة وانزعج السلطان لذلك الخبر وأخذ يعد حملة بقيادة يشبك وأزبك وتمراز وغيرهم وبينما هم على أهبة الاستعداد اذ وصلت الأخبار بأن عسكر حسن الطويل عاد الى بلاده وسر السلطان لذلك ، وفى سنة ٨٨٠ هـ عاد القاضى شمس الدين بن أجا قاضى العسكر وكان قد ذهب رسولا الى حسن الطويل وهذه سفارته الثانية اليه وكانت الأولى أثناء حملة شاه سوار وأخبر بأن الطاعون تفشى فى جيشه ومات بسببه عدد كبير ، فعدل السلطان عن ارسال الحملة سيما وأن حسن الطويل قد بدا ضعفه ، وحضرت زوجته الى القاهرة تطلب من السلطان أن يتدخل بين ابنها الذى كان مقيما فى القاهرة وبين أبيه ، ثم حدثت الفتن فى بلاد حسن الطويل بينه وبين أخيه أويس ودارت الحرب بينهما وقتل فيها أويس .

توفى حسن الطويل سنة ٨٨٣ واعتبر ابن اياس وفاته من «جملة سعد قايتباى» وخلفه ابنه خليل الذى قتل فى عام ٨٨٤ هـ وخلفه أخوه يعقوب . حدثت اضطرابات فى مملكة حسن الطويل ووصلت الأخبار للقاهرة بأن السلطان العثمانى أوشك على الاستيلاء عليها ، وعزم السلطان على ارسال حملة مع حسين بن

أغرلو ابن حسن الطويل الذى كان مقيما بالقاهرة ، ولكن شيئا لم يتم ، ثم مات حسين أثناء الحج ودفن بالمدينة .

اضطربت الأمور فى حماه وثار الأهالى هناك ، وخرج عن الطاعة سيف زعيم آل فضل وقتل نائب حماه وانزعج السلطان لذلك ، وطلب من الأمير يشبك سرعة الخروج للقضاء على ذلك الثائر ، وانتهز يشبك تلك الفرصة واقترح على السلطان القضاء على مملكة الشاه البيضاء بعد الاضطرابات التى سادتها ، ووافق السلطان على ذلك ، وشجع يشبك على ذلك أن أحد الأعاجم أغراه بدولة الشاه البيضاء ، ورأى فى السفر فرصة للابتعاد عن الجلبان الذين ثاروا عليه أكثر من مرة وعزموا على قتله .

خرج يشبك بجيشته ، وعندما اقترب من حماه هرب الثائر ولجأ الى الرها من بلاد الشاه البيضاء ، وتقدم يشبك وحاصر الرها وكان يحكمها بايندر من قبل يعقوب بك بن حسن الطويل . شدد يشبك الحصار وعرض بايندر تسليم الثائر ودفع مبلغ من المال فى نظير فك الحصار ولكن يشبك الواثق من النصر رفض ذلك وهجم على جيش بايندر الذى استمات فى القتال وكتب له النصر على الجيش المملوكى الذى قتل الكثير من أفراده وأسر قائده يشبك وهو على ظهر فرسه وأسر معه نائب الشام ونائب حماه . ظل يشبك فى الأسر ثلاثة أيام ، ثم قطع رأسه عبد أسود

من عبيد بايندر والقيت جثته على الطريق ، وطيف برأسه وبكبار الأسرى فى ماردين .

هزت هذه الكارثة السلطان ، وعزم على الخروج بنفسه لخوفه على البلاد الحلبية لأن معظم الأمراء كانوا فى الأسر ، لكنه أرسل الأمير أزبك قائدا للجيش بدله ومنحه سلطات مطلقة ، وصل أزبك الى حلب عام ٨٨٦ هـ ووصلته الأخبار بأن يعقوب لام بايندر فى التسرع فى قتل يشبك ، ولجأ أزبك الى السياسة وأرسل جائى بك حبيب رسولا ليعقوب ، ونجحت المفاوضات وتم العفو عن كبار الأسرى وعادوا الى حلب . أرسل يعقوب قاصدا الى مصر ليقدم الاعتذار عما وقع من نائب الرها، وأنه حدث بدون علمه ، وخلع عليه السلطان وتم الصلح مع الشاه البيضاء . ثم أفرج السلطان فى المحرم عام ٨٨٧هـ عن أمين المحمل العراقى وزميله من سجنهما بالبرج بالقلعة . وفى نفس العام قتل سيف آل فضل سبب هذه الكارثة .

ظلت العلاقات طيبة بعد تلك الأحداث حتى نهاية عصر قايتباى وتوطدت عرى الصداقة بين دولة المماليك والشاه البيضاء .

العلاقات مع الشاة السوداء :

نشأت دولة الشاه السوداء (نسبة الى الشاه السوداء التى كانت توضع على أعلامهم) وهى احدى القبائل التركمانية

فى أرض أرمينية وأذربيجان واتخذت تبريز عاصمة لها ، وكانت علاقتها بمصر أقرب الى الصداقة ، وساعدت مصر ضد منافستها الشاه البيضاء وعدوها اللدود فى نفس الوقت .

العلاقات مع بني عثمان :

كانت الدولة العثمانية أقوى الدول الواقعة على الحدود الشمالية للدولة المملوكية ، وارتبطت الدولتان بعلاقات كانت ودية للغاية أحيانا وعدائية لدرجة الحرب أحيانا أخرى ، وظلت العلاقات الودية بين الدولتين قائمة طوال وجود خطر مشترك يهدد الدولتين من ناحية الشرق أى من ناحية تيمورلنك وحلفائه، كما حرصت الدولة العثمانية على توطيد علاقاتها الطيبة مع المماليك طوال انشغالها بالحرب فى شبه جزيرة البلقان وضد القوى الأوربية المتحالفة فى وجه التقدم العثمانى فى أوربا . وتمثلت تلك العلاقات الطيبة فى تبادل الهدايا والرسل بين الدولتين ، وفى التهنئة فى المناسبات المختلفة ، وظل الحال على ذلك حتى عهد السلطان بايزيد الذى كان معاصرا للسلطان قايتباى وتحالفت القوتان ضد العدو المشترك ملك الشاه البيضاء الذى تحالف مع القوى الأوربية ضد العثمانيين . اتجه العثمانيون الى آسيا الصغرى بعد أن وصلوا الى أقصى ما يمكن أن يصلوا اليه فى أوربا ، وعملوا على القضاء على الدويلات المستقلة والشبه مستقلة فيها ، ولاشك أن النتيجة الحتمية لتلك

السياسة كانت الصدام بين الدولتين • وكان سبب الاحتكاكات الامارتين التركمانيتين : قرمان ودلغادر ، وهما تحت الحماية المملوكية ، ويرجع تدخل العثمانيين فى شئون الامارتين الى حكم محمد الفاتح الذى نجح فى أن يولى عرش الأمارتين أميرين مواليين للعثمانيين ، والى ترحيب السلطان بالأمراء اللاجئين اليه من بلاط السلطان المملوكى خشقدم • واذا كان الاتفاق الذى تم بين الدولتين على عدم تدخلهما فى شئون الأمارتين كان سببا فى قيام المودة بينهما حتى أوائل عهد قايتباى ، فسرعان ماساءت العلاقات بعد تولى السلطان بايزيد العرش وتدخل السلطان قايتباى فى النزاع بين السلطان وبين أخيه جم ، الذى لجأ الى السلطان قايتباى فأكرم وفادته وجهزه للسفر لأداء فريضة الحج مع أسرته •

والواقع أن لجوء جم وغيره الى البلاط المملوكى كان يقابله لجوء الكثير من المصريين الى البلاط العثمانى ، ولم يكن السلطان قايتباى من أولئك الذين يرغبون فى الحرب الا اذا اضطر اليها ، ولم يكن راغبا فى الصدام مع العثمانيين بسبب جم وانما أراد الاحتفاظ به ليكون ورقة رابحة يهدد بها بايزيد كلما سولت له نفسه الصدام مع المماليك • ويبدو أن جم أدرك ذلك تماما وأن اقامته فى القاهرة وان كان يعيش فى بحبوحة من العيش لا تعدو أن يكون أسيرا وليس لديه أمل فى مساعدة

سلطان مصر له ضد أخيه ، فعرض على السلطان رغبته فى ترك البلاد ، وعمل السلطان كثيرا على أن يثنيه عن رأيه ، كما تدخل بينه وبين أخيه السلطان الذى رفض مقترحات قايتباى ، وضاق جم باقامته فى القاهرة ذرعا وعزم على الخروج لغزو آسيا الصغرى على غير رغبة السلطان ، وقدر لمشروعه الفشل ، ولم يفكر جم فى العودة ثانية للقاهرة بل لجأ الى جزيرة رودس ونزل فى ضيافة رئيس الاسبتارية ، وتقلبت الأحوال بجم وتداولته الأيدى فى الدول الأوربية المعادية للعثمانيين • وظل الأمل يراود السلطان قايتباى فى الحصول على جم وعودته الى بلاطه فى القاهرة ليتخذ منه أداة للضغط على بايزيد ابان اندلاع الحروب بينهما ، فحاول أن يتسلمه من ملك فرنسا ورئيس الاسبتارية ولكنه فشل ، وحاول مرة أخرى وطلب من البابا اينوسنت الثامن تسليم جم وأظهر استعداده للتنازل عن بيت المقدس للبابوية أو الى ملك فرنسا ، وفشلت محاولته •

غضب السلطان بايزيد من حماية قايتباى لجم ورعايته له ، وأخذ يتحين الفرص لتصفية حسابه مع الدولة المملوكية وقد تجمعت لديه بعض الأسباب منها رفض قايتباى طلب بايزيد اصلاح بعض القنوات بمكة ، وعدم اتخاذه موقفا حازما ضد نائب جده الذى استولى على الهدية المرسلة من الهند الى بايزيد وكان السبب المباشر الذى تذرع به بايزيد هو شكوى علاء الدولة أمير

دلغادر من تصرفات قايتباى ، فأمده بقوة حربية عثمانية هاجم بها ملطية التابعة للماليك مخالفا بذلك الاتفاق المعقود بين الدولتين.

عزم السلطان على محاربة علاء الدولة وحليفه ، فأرسل حملة سنة ٨٨٩ هـ بقيادة تمراز الشمسى ، انتصرت على علاء الدولة وحلفائه العثمانيين وعادت ومعها عدد كبير من أعلام العثمانيين ، وعلى الرغم من هذا الانتصار الساحق فان السلطان قايتباى كان يؤثر السلام ، وأرسل بعد مشورة أمرائه السياسى الداهية جانى بك حبيب أحد الأمراء ، الذى خرج من الاسكندرية عام ٨٩٠ هـ ، ومعه تقليد من الخليفة العباسى الى بايزيد « بأن يكون مقام السلطان على البلاد الرومية وما سيفتحه الله على يده من البلاد الكفرية » ، وأرسل الخليفة رسالة شخصية لتهدئة الفتنة بين السلطانين المملوكى والعثمانى ، وأرسل قايتباى هدية فاخرة للسطان وهدية ملك الهند التى كان نائب جده قد استولى عليها مع اعتذار عما حدث . وفى نفس الوقت أعد السلطان حملة حربية لاخضاع علاء الدولة الثائر على السلطنة .

قابل بايزيد كل ذلك بالاساءة ، ويبدو أنه كان يعمل على تنفيذ خطته فى الاستيلاء على باقى امارات آسيا الصغرى وربما التوسع على حساب الدولة المملوكية فقابل السفير المصرى بفتور وأرسل جيشا لغزو بعض البلاد المملوكية ، ولم ير قايتباى بدا من استئناف الحرب ، وأرسل قائده أزبك فى حملات ثلاث ،

بدأت الحملة الأولى سنة ٨٩٠ هـ وهزم فيها العثمانيون هزيمة منكرة وأسر عدد كبير منهم مع قائدهم أحمد بك بن هرسك ، وعمل بايزيد على الانتقام مما حدث ، وأعد جيشا ضخما وزحف به ، وخرج أزبك بحملة مجهزة أحسن تجهيز ، وعلى الرغم من هذه الاستعدادات من قبل قايتباى ، الا أنه مد يده للسلام وأطلق سراح القائد العثمانى الأسير وفك قيود الأسرى ، ولم تثمر كل تلك المحاولات ، وزاد بايزيد ، فى استعداداته ، وأرسل قوة بحرية أخذت تقترب من الاسكندرونة ميناء حلب ليقطع الطريق على أزبك ، وسار الأسطول على الرغم من رفض البندقية تموينه من قبرص التابعة لها ، وخدمت الظروف الطبيعية أزبك اذ اجتاح ذلك الأسطول عاصفة عاتية أغرقت معظم سفنه وشتت ما تبقى ، وتقدم أزبك ووصل الى أذنه واستولى عليها بعد حصار دام ثلاثة أشهر ، ووقع فى يده كثير من الأسرى والغنائم ولما وصلت الأخبار للقاهرة ، احتفل فيها سبعة أيام ودخل أزبك ظافرا للقاهرة ومعه كثير من العثمانيين آثروا العمل فى خدمة قايتباى وأفرد لهم مقررات فى الدولة وأطلق عليهم اسم العثمانية وظلوا حتى نهاية العصر المملوكى .

شق على بايزيد هزيمة العثمانيين، فأرسل حملة ثالثة استولت على سيس وطرسوس وغيرها ، واستجاب السلطان قايتباى لرسول داود باشا وزير بايزيد الذى جاء الى القاهرة

للمفاوضة فى الصلح ، واشترط قايتباى اطلاق سراح الأسرى المماليك وتسليم مفاتيح القلاع التى استولى عليها العثمانيون ، والواقع أن السلطان قايتباى لم يوافق على الدخول فى مفاوضات الصلح الا لما كانت تعانيه البلاد من سوء فى أحوالها الاقتصادية والى ثورات الجلبان المتكررة . وعلى الرغم من صدق نية السلطان قايتباى فى اقرار السلام الا أن ذلك لم يقابل سوى بالخديعة من قبل العثمانيين الذين حشدوا قواتهم قرب قيصرية الروم بآسيا الصغرى ، ولم يقف قايتباى مكتوف اليدين فأرسل حملة قوية ثالثة بقيادة أزبك ، وعلى الرغم من تأكده من الموقف العدائى السافر لخصمه الا أنه طلب من أزبك أن يتخذ خطوة نحو السلم ، وأرسل أزبك رسولا الى المعسكر العثمانى ولما استبطأه تحرك وحمل على العثمانيين حملة عنيفة واستعاد كولك واستولى على قلعة كواره ، وعاد الى القاهرة ودخلها فى المحرم سنة ٨٩٦ هـ دخول الظافرين وهكذا هزم العثمانيون ثلاث مرات على يد الجيش المصرى بقيادة أزبك .

والواقع أن السلطان قايتباى كان بعيد النظر بالنسبة لموقف العثمانيين من بلاده ، فلم يكف عن الاستعداد للحرب وجمع مستشاريه وتحدث اليهم قائلا : « ان ابن عثمان ليس براجع عن محاربة عسكر مصر ، وأن أحوال البلاد الحلبية قد فسدت وآلت الى الخراب ، وأن التجار منعوا ما كان يجلب الى

مصر من الأصناف ، وأن المماليك الجلبان يرومون منى النفقة ، وان لم أنفق عليهم شيئا نهبوا مصر والقاهرة ونهبوا البيوت وأحرقوها ، ومتى رجع عسكر ابن عثمان الى البلاد الحلبية لا يخرج العسكر من مصر حتى أنفق عليهم » • ولما كانت الخزائن خالية فقد تم الاتفاق مع القضاة على تدبير المال ، وفى تلك الأثناء وصل رسول عثمانى الى مصر وتم الصلح بين الطرفين وتبودلت الهدايا والمجاملات • والواقع أن ابن عثمان لم يرجع عن محاربة عسكر مصر كما توقع قايتباى وحدث النزاع الحتمى فى عهد السلطان سليم الذى كان فى الواقع قصير النظر بتحالفه مع البرتغاليين الذين استطاعت مدفعيتهم (٤) أن تحصد الجيش المملوكى فى موقعة مرج دابق فى أيام الغورى وما تلى ذلك من القضاء على الدولة المملوكية ، وتحمل سليم أعباء النزاع مع البرتغاليين على بحار الهند والذى كان قد بدأ بين المماليك والبرتغاليين •

بنو رمضان والمماليك :

ظل بنو رمضان على ولائهم للدولة المملوكية ، وناصروها فى كثير من المواقف ففى ربيع الآخر سنة ٨٧٤ هـ استطاع أمير بنى رمضان أن يهزم شاه سوار واستولى على قلعة سيس التى

(٤) لم تذكر هذه الحقيقة الا فى Arnol and Grohman; The Islamic Book ولم أعثر على ذكر لها فى غيره من المراجع •

كانت فى أيديهم ، ولما تمكن شاه سوار فى المحرم سنة ٨٧٥ من هزيمة أمير بنى رمضان واستولى على قلعة اياس انزعج السلطان وأعد حملة كبيرة لحرب شاه سوار كما تقدم •

العلاقات مع تونس :

امتازت العلاقات بين الدولتين بالود والمجاملة ، وكانت الهدايا تتبادل بينهما فى مختلف المناسبات سيما فى موسم الحج ، وأكرم السلطان الحره زوجة ملك تونس عندما حضرت لتأدية فريضة الحج ، كما أكرم جميع من حضر معها •

العلاقات مع بنى نصر فى غرناطة :

كان للنزاع بين ملوك غرناطة أكبر الأثر فى التعجيل بسقوطها فى يد الفرنج ، وكثيرا ما لجأ ملوك غرناطة الى طلب العون من المماليك ، ولما ناء أمير غرناطة من طلب الجزية المفروضة عليه رفضها ، تقدمت جيوش فرديناند وايزابلا لمحاربته فأسرع يكتب للسلطان قايتباى يطلب منه النجدة ، وأرسل قاصدا من عنده ، ولم يتمكن السلطان من ارسال النجدة المطلوبة وكل ما قام به هو الكتابة الى قساوسة كنيسة القيامة بالقدس ، ليكتبوا لملوك الفرنج ليرعوا مسلمى الأندلس، وهدد السلطان فى حالة ما اذا أصاب مسلمى الأندلس أذى سيضطر الى القبض على القسس بالقيامة ويمنع الفرنج من دخول القيامة بل وهدد بهدمها ، ونفذ القسس طلب السلطان

وكتبوا لملوك الفرنج ولكن ذلك لم يجد شيئا ، وسقطت غرناطة فى شعبان سنة ٨٩٧ هـ .

العلاقات مع بلاد التكرور :

كانت العلاقات طيبة مع بلاد التكرور ، وقد خدم الكثير منهم فى الجيش المملوكى ووصلوا الى مراكز عالية ، كما بنى أحدهم مدرسة فى مصر ، وكثيرا ما مروا بالبلاد فى طريقهم الى الحجاز ، واشتغل الكثير منهم بالتجارة ، وكان من بينهم تجار للسلطان قايتباى .

العلاقات مع الهند :

من بين الدول الاسلامية بالهند التى ارتبطت بعلاقات ودية مملكة مالوه تبودلت الرسائل بينها وبين السلطان قايتباى ، كما حضر رسلها بالهدايا للسلطان وللخليفة العباسى ، وطلب أحد رسلهم فى جمادى الآخر سنة ٨٧٩ هـ . تقليدا لسيده بولاية الهند من قبل الخليفة العباسى ، وأجيب الى طلبه وأرسل له التقليد المطلوب وأنعم على القاصد .

العلاقات مع العالم المسيحى :

لم يهدأ للصليبيين بال من منذ سقوط عكا آخر معاقلهم بالشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، فأخذوا يبذلون

المحاولة تلو الأخرى للنيل من الدولة المملوكية ، واستمرت غاراتهم ، وكان سلاطين المماليك لهم بالمرصاد ففى صفر سنة ٨٧٧ هـ قبض نائب الاسكندرية على جماعة من الفرنج ، كانوا يعبثون بالشواطىء المصرية وأمر السلطان بسجنهم فى سجن المقشرة فأسلم جماعة منهم وسجن الباقون • وعبث الفرنج بمراكبهم جهة الطينة ، واستطاع القاضى شرف الدين الأنصارى فى ربيع الآخر سنة ٨٧٧ هـ من القبض على بعضهم ولما اعتدى الفرنج فى المحرم سنة ٨٧٨ هـ على ثغر دمياط والاسكندرية وأسروا تسعة من المسلمين ، أسرع السلطان بارسال قجماسى الأسحاقى لمطاردتهم حيثما كانوا ، واستطاع تجار الفرنج فى رمضان سنة ٨٨٠ هـ أن يحتالوا على بعض تجار الاسكندرية حتى أسروهم وكان من بين الأسرى بعض تجار السلطان ، وغادروا الاسكندرية الى بلادهم ، ولما وصل الخبر للسلطان اشتد به الغضب وأمر بالقبض على تجار الفرنج بالاسكندرية وطلب اليهم أن يكتبوا لملوكهم لاطلاق سراح المأسورين ، وتمكن التجار الأسرى من فدية أنفسهم بما قرر عليهم من أموال •

أما قبرص فقد ظلت تؤدى الجزية المقررة عليها ، وسارع البنادقة الذين كانوا يحكمونها بعد تدخلهم بين أعضاء البيت المالك الى ارسال الجزية للسلطان كما عقدوا معاهدة معه •

وحاولت البندقية أن تمد يد المعونة لحسن الطويل ملك الشاه البيضاء وعقدت محالفة معه وحاربت فى صفه ضد العثمانيين مما اضطر العثمانيين الى التحالف مع المماليك لمواجهة الخطر المشترك .

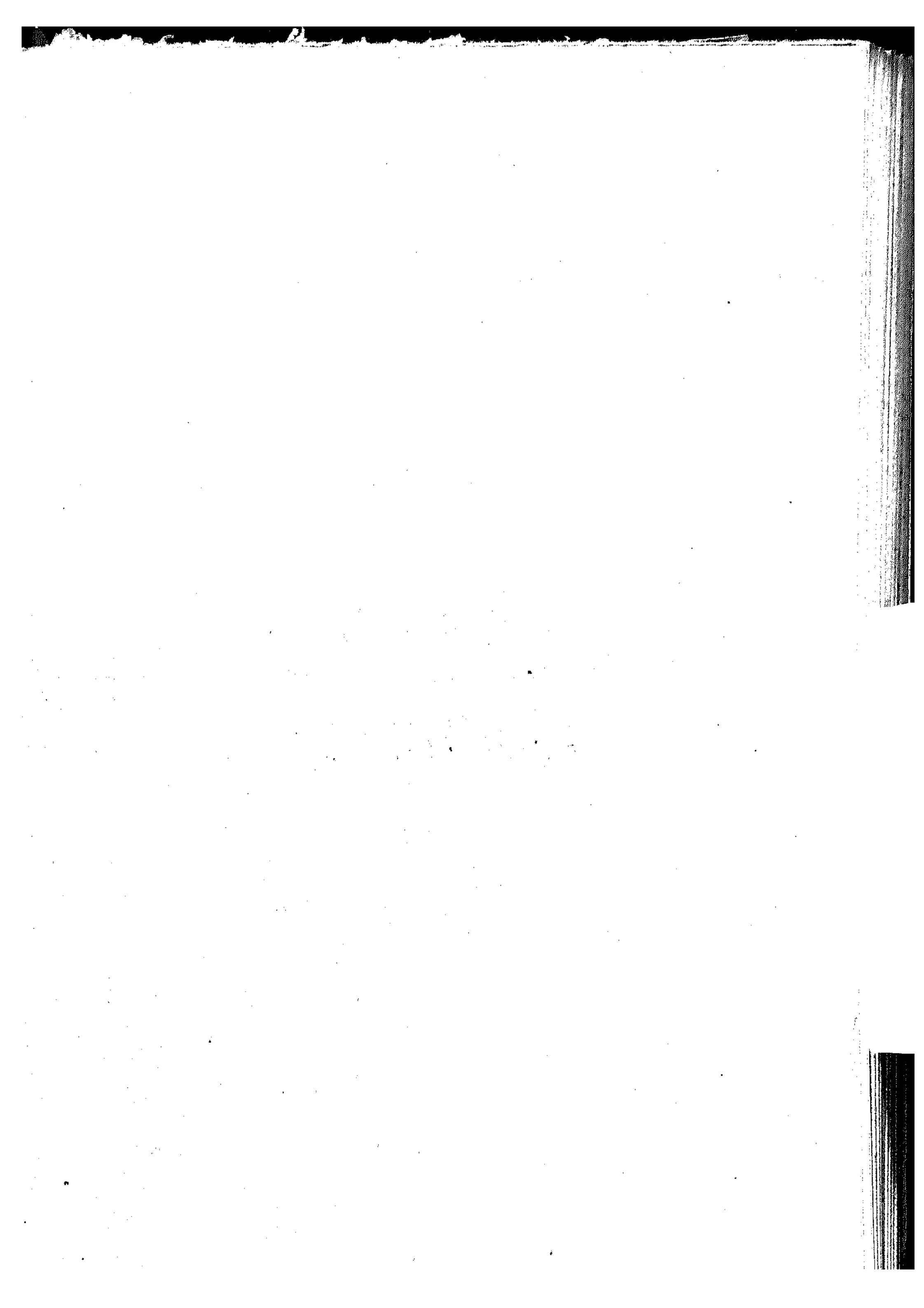
ولم توافق فرنسا والبابوية على تسليم جم للسلطان قايتباى واكتفى ملك فرنسا بارسال هدية للسلطان .

وفى عهد السلطان قايتباى كانت العلاقات مع الحبشة علاقات طيبة ، وعندما حضر فى المحرم سنة ٨٨٦ رسول ملك الحبشة ليسأل البطرك فى تعيين نائب عنه فى بلادهم أكرمه السلطان ، وقبل هدية ملك الحبشة ، واحتفل بالرسول احتفالا رسميا ، ومن طريف ما يذكر أنه أحضر ومن معه كراسى فلما أرادوا الجلوس عليها فى حضرة السلطان منعوا من ذلك .

مما سبق عرضه يتضح أن مصر فى عهد قايتباى تمتعت بمنزلة دولية ممتازة ، فظلت كما كانت مركزا للعالم الاسلامى ، والتمس ملوك العالم الاسلامى قاطبة التقاليد والتفاويض بالحكم من خليفة مصر بعد اذن السلطان المملوكى . واذا كانت الدولة فى عهده قد دخلت فى حروب كثيرة مع الدول المجاورة لحدودها الشمالية ، وعلى الرغم مما تكبده من مصاريف ورجال ، خرجت مرفوعة الرأس لم تمس أراضيها وظلت مهيبة الجانب .

الفصل الرابع

أعمال العمران



اذا اعتبرنا عصر دولة المماليك الجراكسة هو العصر الماسى بالنسبة للعمارة الاسـلامية فى مصر ، فليس من شك أن فترة حكم السلطان قايتباى تعتبر درة ذلك العصر ، فقد شغف هذا السلطان بالتعمير والبناء والانشاء أيما شغف ، وقد انتقل ذلك الشـغف الى رجال دولته من أمراء وقضاه وكتاب ، وانتشرت عمـائره وعمـائرهم فى طول البـلاد وعرضـها فى شتى أنحاء الامبراطورية المملوكية المترامية الأطراف • هذا وقد لبست مدينة القاهرة فى عهده ثوبا قشيبا فمستها يد التنظيم والتعمير ، وان كان ذلك العمل لم ينج من اعتراض المعترضين • وليس المقصود بذكر الأعمال العمرانية فيما يلى هو دراسـة فنية لتلك الأعمال فان ذلك يدخلنا فى تفاصيل تخرج بنا عن مقصود هذا الكتاب ، وانما المقصـود هو سرد لأعمال العمران التى تمت تحت حكم السلطان قايتباى •

وعلى الرغم مما عرف عن السـلطان قايتباى من الحرص

لدرجة الشح ، فانه مع ذلك أنفق الكثير على العمائر التى أقامها فى مصر وسوريا وبلاد العرب فضلا عما أنفقه على اصلاح آثار أسلافه والتى نقش اسمه عليها ، وكان لأسفاره العديدة وتفقده أنحاء الامبراطورية أكبر الأثر فى احياء المشروعات العمرانية. ويدل تعدد المآذن التى خلفها ذلك السلطان واختلاف طرزها وما امتازت به من رشاقة وجمال على كثرة أولئك الذين صمموها ونبوغهم . وقد بلغ النحت على الحجر ذروته فى عهد قايتباى وتعتبر زخارف واجهة وكالته أمام الواجهة القبلية للأزهر أروع تلك النماذج وقد أعجب بها جميع الرحالة الأجانب وعلماء الآثار حتى أن العالم الانجليزى الذائع الصيت وصاحب الباع الطويل فى الدراسات الأثرية والتاريخية الاسلامية ستانلى لين بول قد صب نماذج من زخارف تلك الواجهة ووضعها فى متحف فيكتوريا والبرت بثوثكتزنجتن بلندن وقد سجل فى مدينة القاهرة وحدها مما تبقى من آثار عهد ذلك السلطان ٣٨ أثرا وفى كل من الاسكندرية ورشيد والقرين والشيخ زياد بالمنيا أثر واحد . غير ما جدده من آثار مثل قناطر أبو المنجا بناحية ميت نامه بمحافظة القليوبية . ترك السلطان قايتباى عدة وثائق للأوقاف التى حبسها على عمائره والأعمال الخيرية التى قررها ، وفى هذه الوثائق وصف لكثير من عمائر ذلك السلطان .

مدينة القاهرة :

أمر الأمير يشبك الدوادار بتوسيع الطرقات والشوارع والأزقة بمدينة القاهرة ، وطلب من القاضى فتح الدين السوهاجى أن يحكم بهدم ما أنشىء فى الشوارع والأسواق بغير طريق شرعى من أبنية وزباع وحوانيت وسقائف ومصاطب وغيرها ، وأصدر القاضى حكمه بهدم تلك المبانى ، وتم الهدم فعلا وعلى الرغم من أن ذلك العمل عاد بالنفع الكثير من ناحية توسيع الطرقات الا أنه عاد بالضرر على جماعة من الناس بسبب هدم مبانيهم ولم يستثن من ذلك أحدا حتى أنه هدم لخوذ شقرا ابنة الملك الناصر فرج ثلاثة رباع أحدهم كان واقعا أمام جامع الصالح طلائع خارج باب زويلة • وقد تعرض القاضى لسخط العامة بسبب فتواه • رأى الشاعر شهاب المنصورى فى ذلك العمل تجديدا لشباب الشوارع والمساجد بالقاهرة وخلد ذلك العمل فى قصيدة طويلة • وبعد أن تم توسيع الطرقات امتدت يد الاصلاح الى واجهات المساجد والجوامع وأبوابها فأصلحت وجليت زخارفها وبيضت حوائطها وكان لجامع الصالح طلائع ابن زريك الموجود حاليا بالقرب من باب زويلة (المتولى) أكبر نصيب من الاصلاح وقد ظهرت به عدة عواميد رخام أمر بتنظيفها واظهارها • وأصدر يشبك الدوادار أوامره بتبييض الدكاكين ووجوه الرباع المطلة على الشوارع وعين للأشراف

على تلك الأعمال أحد أبناء الناس بعد أن منحه وظيفة شد الطرقات والذى أخذ يستحث الناس فى سرعة البياض والاصلاح حتى عادت القاهرة وكأنها عروس فى ليلة الزفاف . ونال باب زويلة شيء من تلك الأعمال فقلعت عتبته المعروفة باسم الزلاقة ومهدت الطريق أمامها وأغلقت لذلك عدة أيام واستعمل الأهالى للدخول للقاهرة باب الفرج حتى تم اصلاح باب زويلة .

أضيف فى عهد قايتباى الى مدينة القاهرة حى جديد هو حى الأزبكية ، نسبة لمنشئه الأمير أزبك من ططخ أحد الأمراء البارزين فى عهد قايتباى ، وقد بدأ أزبك فى انشائه أواخر عام ٨٨٠ هـ . ومجمل تاريخ هذه البقعة أنها كانت عامرة ، بها المناظر والبساتين وتسمى مناظر اللوق وكانت مياه النيل تصل اليها من فم الخور بخليج أطلق عليه خليج الذكر ، ثم آل أمرها الى الخراب فى عهد الناصر محمد بن قلاون ، الى أن قام أحد الأهالى بايصال الماء اليها وأخذ يزرعها بعد الفيضان ، ثم خربت وصارت كيمانا بها أشجار متناثره وبها بعض المزارات القديمة وجامع الجاكى حتى أدركها الأمير أزبك وعمر بها مناخا (١) لجماله وكان ساكنا بالقرب منها ، ثم أخذ يبنى القاعات والدور والمقعد والحواصل وغيرها ومهد الأرض وأزال الأكوام الموجودة بها وحفر بها بركة وأجرى لها الماء من الخليج الناصرى وجدد

---

(١) المناخ : الأماكن المخصصة للجمال السلطانية .

قنطرة خليج الذكر ، وأحاط البركة برصيف ، وقد بذل فى سبيل ذلك الكثير من الجهد والمال وقيل ان مبلغ ما صرف عليها يزيد على مائتى ألف دينار ويرى ابن اياس المؤرخ المعاصر « أن ذلك فى غير طاعة الله ولا به نفع للمسلمين » ودب العمران الى ذلك الموقع وأخذ الناس فى بناء القصور الفاخرة على تلك البركة ورغب الناس فى سكناها وصارت مدينة بمفردها . ثم أنشأ بها أزبك جامعا كبيرا وجعل به خطبه وأنشأ به مئذنة عظيمة واعتنى بزخرفته وفيه يقول الشيخ شمس الدين القادرى :

بنى جامعا لله يلتمس الرضا — به ونجاة من أليم عقابه
وفكر فى الحشر الذى عقباته — طوال يهول المرء قطع عقابه
فاكرم به من جامع من ثوى به — فلم يخل منشيه اذا من ثوابه
فيافوز عبد مؤمن قد جنى به — ثمارا لجود من رياض جناته
عظيم أمور لا يشوب مثابه — سواه لأجر نال كل المنا به

وقد هدم ذلك المسجد فى أوائل هذا القرن . وأنشا أزبك حول الجامع الرباع والحمامات والقياسر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع ، وظل ساكنا بقصوره متمتعا بها حتى مات ومازال اسمه يطلق على حى الأزبكية حتى الآن . وفى شعبان سنة ٨٩٠ هـ كان أول فتح لسد بركة الأزبكية وكان يوما مشهودا ، دعا فيه أزبك الأمراء المقدمين فى قصره المطل على

البركة ، وظل فتح ذلك السد كل عام من الأيام المعددة يدونه المؤرخون فى حولياتهم ، وكانت توقد حول البركة مختلف وسائل الاضاءة وتعمل بها حراقة (٢) نفط وتدخل اليها المراكب، وتقام حول البركة الخيام ويلهو فيها القوم ما شاء لهم أن يلهوا وألف الشيخ شمس الدين القادرى فى بركة الأزبكية مقامة كلها غرر . ولما كملت عمارة الأزبكية ودخل اليها الماء أنعم السلطان على أزبك بأرضها وكتب له بذلك وثيقة وكانت تلك الأرض موقوفة على خزائن السلاح .

وجدير بالذكر أن نشير الى أن السلطان كان يتفقد عمائره وعمائر أمرائه وكان يلبى دعوتهم لزيارتها وحدث فى جماد الأول سنة ٨٨٢ هـ عندما انتهت عمارة الأزبكية دعا أزبك السلطان الذى حضر وبات عنده فى ضيافته ، وقدم له أزبك الهدايا ولكنه رفضها .

ومن التنظيمات التى تمت فى مدينة القاهرة أمر السلطان فى سنة ٨٩٥ هـ بنقل سوق الحمير من باب الميدان الى جوار مدرسة قانى باى الجركسى الموجودة حاليا بحى السيدة عائشة.

وصونا لنظافة القاهرة ولما كان يعتريها من طواعين ، أمر يشبك من مهدى ببناء مغسل بجوار مدرسة السلطان حسن

---

(٢) **الحراقة** : نوع من السفن الحربية ، استعملت لحمل الأسلحة النارية وكانت تظهر فى الاستعراضات التى تقام فى الاحتفالات .

حتى تحمل اليه جثث الموتى حيث يغسلون ثم ينقلون الى المقابر .

واحتراما لبيوت الله ولمنع الضوضاء عن المصليين أمر السلطان بازالة الدكاكين المستحدثة أسفل شبابيك جامع المؤيد وجامع الأشرف برسباى بالصاغة .

أمر السلطان بتحديد الميدان الناصرى فى ذى القعدة سنة ٨٩٧ هـ وكان المشرف على عمارته الأتابكى أزبك . كما أمر بازالة سبيل جانى بك الفقيه أمير سلاح لاعتراضه الطريق العام.

كان يشرف على انجاز عمائر السلطان أمراء دولته وكان هو دائب النزول من القلعة لتتبعها والمرور عليها ، ويبدو أنه كان للسلطان عدد من المهندسين الذين يقومون بتصميم تلك المبانى تحت اشراف رؤساء لهم ، منهم البدرى بدر الدين محمد ابن الكويز الذى عينه السلطان فى ذلك المنصب فى شوال سنة ٨٧٤ هـ عوضا عن البدرى حسن بن الطولونى الذى عزله السلطان ، وظل ابن الكويز فى وظيفته حتى توفى فى شعبان سنة ٨٨٥ هـ فعهد السلطان الى البدرى حسن بن الطولونى بمهام هذه الوظيفة فى صفر سنة ٨٨٦ هـ . وان تنوع طرز تلك المبانى خصوصا المآذن ليدل على أنه كان هناك عدد من المهندسين الذين يقومون بتصميم تلك الأعمال للسلطان ولرجال دولته .

عمائر السلطان بمصر :

يمكن تقسيم عمائر السلطان بمصر الى العمائر الجنائزية والدينية والعمائر المدنية وتشمل عمائر المنافع العامة ثم العمائر الحربية .

تعتبر تربة السلطان وجامعه الذى بدأ تشييدهما فى شوال سنة ٨٧٤ هـ فى الجبانة الشرقية والتى اشتهرت باسم صحراء قايتباى وعرفت خطأ باسم مقابر الخلفاء وحقيقة أمرها أنها مقابر السلاطين اذ لم يدفن فيها خليفة عباسى واحد وانما دفنوا فى قبتهم بجوار مسجد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، تعتبر من أروع العمائر الاسلامية الجنائزية والدينية فى مصر ، وهى تتكون من التربة والمسجد وما زالت الخطبة مقامة به منذ قررها السلطان ، والسبيل والصهريج يعلوهما الكتاب والمزيره وخلاوى الصوفية . وأقيمت الشعائر الدينية فى المدرسة فى رجب سنة ٨٧٩ هـ ونظم السلطان أمورها فعين الشيخ أبا عبد الله القلجانى المغربى قاضى الجماعة فى مشيخة التربة والشيخ أبوالفضل المحروقى خطيبا لها ، وبدر الدين الماردانى شيخا للميقاتية والشيخ ناصر الدين الأخميمى فى قراءة المصحف ، والعلائى على بن خاص بك خازنا للكتب ، وقرر بها ثلاثين صوفيا يحضرون الصلوات الخمس ، وبنى لهم حول التربة عدة بيوت يسكنون فيها دائما ورتب لهم ما يحتاجون اليه من مأكل

ومشرب . والواقع أن الزائر لهذه التربة يبهره جمالها وتناسق أجزائها والدقة التى اتبعت فى بنائها وزخرفتها . ولم تكن هذه التربة سوى نواة لمنشأة أقامها السلطان قايتباى فى هذه المنطقة كما سيأتى وقد أدار حولها سورا به عدة أبواب ما زال باقيا منها بابان حتى الآن ، ويبدو أن السلطان أراد أن يحاكى بتلك المجموعة ، المجموعة التى شرع السلطان فرج بن برقوق فى اقامتها حول الخانقاه التى شيدها فوق جثمان والده والذى أوصى أن يدفن فى مكانها تحت أقدام بعض المتصوفه ، وان كان الموت قد حال بينه وبين اتمام ما شرع فى بنائه . وكان المشرف على تلك الأعمال الدوادار تغرى بردى الخازندار والمباشر لها البدر بن الكريز .

أنشأ السلطان فى جزيرة الروضة مسجدا يعتبر أقل مساجده زخرفا نظرا لما أصابه ، كان هذا المسجد فى الأصل مسجدا أنشأه محمد بن فضل الله القاضى فخر الدين المعروف بالفخر ، ولما جدده الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى عرف بجامع المقسى ثم تخرب وتعطلت اقامة الشعائر الدينية ، فهدمه السلطان قايتباى ، وأنشأ مكانه مسجده الذى ما زال قائما ، وفى سنة ١٢١٦ هـ احترق المسجد بسبب انفجار البارود وضاع بسبب ذلك جميع نجارة المسجد القديمة . وفى ذى الحجة سنة ٨٨٦ هـ نزل السلطان وتوجه الى الروضة لمعاينة المسجد ، وفى رجب

سنة ٨٩٦ انتهى العمل فيه ، وقد أشرف على بنائه البدر حسن بن الطولونى الذى أنشأ ناعورة أمامه على البحر ، وأخذ الناس يذهبون أفواجا الى المسجد لمشاهدتها ، واعتاد ابن الطولونى أن يقيم احتفالا هائلا ، وفى الليلة الرابعة عشره من الشهر العربى بالجامع وأطلق عليها اسم البدرية وكان يقام أمام المسجد على ساحل البحر مالا يحصى من الخيام ويمتلىء البحر بالمراكب وتضاء الأنوار الباهرة ويحضر الشعراء والوعاظ واستمر ذلك مدة طويلة . وجدير بالذكر أن جلال الدين السيوطى المؤرخ أفتى بأنه لا يجوز البناء على ساحل البحر لأن الاجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية ، ومع ذلك فان المسجد عرف أيضا باسم السيوطى لأنه اما أقام به أو سكن بجواره .

وفى الكبش أنشأ السلطان مدرسة للجمعية مازالت قائمة حتى الآن وكان المشرف على عمارتها الأستادار وتمتاز هذه المدرسة بزخارفها المحفورة فى الحجر .

أنشأ السلطان مسجدا بغيط العدة مكان مسجد سلطان شاه بن قرا الذى كان أمير طبلخاناه فى دولة السلطان شعبان ابن حسين بن محمد بن قلاوون ، وظل المسجد قائما الى أن هدمه السلطان قايتباى ، وكان المشرف على الهدم الأمير تغرى

بردى القادرى ، وأنشأ له منبرا ظل قائما بالمسجد الى حوالى سنة ١٢٨٨ هـ عندما باعه ناظر المسجد محمد أفندى الكريدلى بمبلغ مائتين وخمسين جنيها الى أحد الأجانب فأخرجه من مصر، وعاقب الخديو اسماعيل هذا الناظر والنجار الذى قام بفك المنبر بالنفى الى السودان ، واستقر المنبر القديم بعد اخراجه من مصر بمتحف فيكتوريا والبرت بلندن ومازال به حتى الآن وليس بالمتحف البريطانى كما هو متداول فى المراجع ، وقد جدد هذا المسجد فى عهد الخديو اسماعيل ، ويمتاز بوجود أعمدة ذات أضلاع مثمنة حفرت فيها الزخارف وهى تمثل نوعا جديدا لعمود اسلامى كامل .

وفى رمضان سنة ٨٨٥ هـ أمر السلطان بتجديد قبة الامام الشافعى وزخرفتها وكان الشاد (أى المشرف) على عمارتها الخواجا شمس الدين بن الزمن .

وجدد السلطان المدرسة الصلاحية المجاورة لقبة الامام الشافعى .

ركب السلطان فى صفر سنة ٨٧٦ هـ وتوجه الى جامع عمرو بن العاص وعاين ماتهدم من حوائطه وأسقفه وأمر ببنائه من ماله الخاص .

وفى صفر سنة ٨٧٦ هـ أمر السلطان ابن الطولونى بتجديد عمارة الميضأة بجامع القلعة ، فوسعها ورمم فى الجامع وأنفق على

ذلك ألف دينار ، والمقصود بجامع القلعة المسجد الذى أنشأه الناصر محمد بن قلاوون والذى ظل المسجد الرئيسى فى القلعة تعقد فيه الاجتماعات وعقود الزواج لأبناء السلاطين ورجال الدولة ، ويختم فيه البخارى وما شاكل ذلك ، وفى ذى الحجة سنة ٨٩٢ هـ سقطت قبة الجامع على المحراب والمنبر وقتل بسبب ذلك بواب الجامع وولده واهتزت القلعة للحادث ، وخرج السلطان على عجل لمشاهدة ما حدث وأمر بمشال الأتربة من الجامع ، وأمر بتجديد القبة والمنبر ، وجددت القبة واستعيض عن المنبر الخشب بمنبر من الرخام الملون ، ومما يؤسف له أن ذلك المنبر فقد ، وفى رجب سنة ٨٩٣ هـ تم تجديد القبة والمنبر .

نال الجامع الأزهر الكثير من الاصلاح فى عهد السلطان قايتباى ، فقد هدم الباب الغربى للمسجد سنة ٨٧٣ هـ ، وأنشأ مكانه الباب الحالى المحصور بين المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية ، كما أنشأ على يمينه المنارة الرشيقة الحافلة بالزخارف وفى سنة ٨٨١ هـ زار السلطان الجامع وكان معه كاتب السر وبعض الأمراء ولما دخل الجامع طلب القضاة ، وعاين سطح المسجد وأمر بهدم الخلاوى المحدثه فوقه ، وأمر بترميم الجامع وجدد دورة المياه ، وفى سنة ٩٠٠ هـ انتهى تجديد الجامع على يد الخواجا مصطفى بن محمود بن رستم الرومى ، وبلغت قيمة ما صرف عليه خمسة عشر ألف دينار .

أمر السلطان بتجديد المدرسة المنصورية التى بناها المنصور قلاوون ضمن مجموعته الشهيرة • بالنحاسين بحى الجمالية وقام الأتابكى أزبك فى سنة ٨٩٩ هـ بتجديدها وعمل قبة على الفسقية الموجودة بها وجدد بها منبرا وأقام بها خطبة ، وخطب فيها فعلا ، ولم يسبقه أحد من الأتابكية باقامة خطبة بها، والواقع أن الأتابكى أزبك بعمله هذا خرج عن شرط الواقف ، ولما تولى الأتابكية تمراز الشمس بعد أزبك أبطل الخطبة منها، فلما قتل تمراز وأعيد أزبك الى الأتابكية أعاد الخطبة ثانية •

أنشأ السلطان جامعا بالدقى تجاه الجزيرة الوسطانية ومازال هذا الأثر قائما حتى الآن وان كان قد اعتراه التغيير والتبديل •

وفى دمياط أنشأ السلطان مدرسة مازالت قائمة حتى الآن وهى المدرسة المدبولية •

جدد السلطان جامع الرحمة وأشرف عليه شاد بك من صديق الأشرفى برسباى •

وجدد الجامع المعروف بشاكر بجوار قنطرة قديدار •

أنشأ جامع سلمون الغبار ومنارته وأنشأ بجانبه سبيلا •

جدد مزار الشيخ عماد الدين بحارة السقايين وبنى له قبة ومنارة ووسع أبوابه وجدد مقام سيدى ابراهيم الدسوقى •

جدد مقام سيدى أحمد البدوى •

وأشرف على كليهمـــا مغلبـــاى الأشرفى اينـــال المعروف بالبهلوان .

جدد مزار اليسع قبلى جامع محمود بالقرافة تحت العارض قريبا من ضريح ابن الفارض والمعروف بأخوة يوسف .

وجدد الزاوية الحمراء تجاه جامع قيـــدان وكان المشرف عليها البدرى أبى البقاء بن الجيصان . جدد جامع الأمير زياد ابن عمرو العتكى بناحية الشيخ زيادة بمحافظة المنيا . وزاوية للعربان بطنبدا .

أنشـــأ زاوية خارج الخانقاه بجوار زاوية النبتيتى وجعل بها فقراء مقيمين مع شيخهم محمود العجمى .

ساعد فى عمارة جامع الفتح بالقرب من القشاشـــين تحت الربع وأنشأ منارته .

أعاد الجزء المغتصب من المدرسة السيوفية وأقام مصالحها .

أنشأ زاوية بين المرج والزيات .

أنشأ مدرسة بالاسكندرية .

أنشأ جامعا لطيفا خارج باب القرافة ، وقد هدم هذا المسجد فى السنوات الأخيرة .

أنشأ مسجدا بالصالحية .

أنشأ منبرا من الحجر لخانقاه السلطان فرج بن برقوق مازال باقيا حتى الآن .

جدد الزاوية الحمراء .

جدد المسجد النفيسى .

أنشأ مسجدا بالقرين ومازال الجامع قائما حتى الآن عليه اسم السلطان .

أنشأ بجهة العباسية بمحافظة الشرقية جامعا .

أنشأ بصالحية قطيا جامعا .

أما العمائر الجنائزية فقد أنشأ السلطان قبة فوق ضريح الشيخ عبد الله المنوفى بالقرافة الشرقية بالقرب من مدفن السلطان ومدرسته ، ومازالت هذه القبة قائمة حتى الآن .

وقام السلطان باتمام بناء قبة الأمير يشبك التى شرع فى بنائها عند دور الحسينية والتى توفى قبل اتمامها والمعروفة الآن باسم القبة الفداوية ، ومازالت قائمة حتى الآن بحى العباسية ، وقد نقش السلطان اسمه عليها ، والواقع أن هذه القبة ليست سوى جزء من مجموعة من المبانى الضخمة أنشأها يشبك هناك وجعلها متنزها وأقام بجوارها حقولا ومجارى مياه وسوق وليشبك قبة أخرى مازالت قائمة عند مدخل القصر الجمهورى بالقبة وتنسب خطأ الى السلطان الغورى ، ولكنها من انشاء

الأمير يشبك وأنشأ السلطان قبة بجوار مدرسته بالقرافة الشرقية مازالت باقية ومعروفة باسم قبة الجلشني .

تعددت عمائر السلطان المدنية وشملت جميع نواحي الحياة في العصر المملوكي فمنها ما يخص العمارة السكنية والعمارة التجارية والأعمال الخيرية والتعليم وشئون الري من قناطر وغيرها ، وكان الرفق بالدواب ملحوظا فأنشئت لهم عدة أحواض في جميع أنحاء البلاد ، قد تخلف لنا من تلك الأحواض ثلاثة بمدينة القاهرة . والوكالات عبارة عن مبان مكونة من عدة طوابق الأرضي منها عبارة عن حوش مكشوف كبير تحدق به الحواصل المعدة لحفظ بضائع التجارة ويصل اليه من الباب العمومي بالواجهة الأصلية للمبنى وكان بهذه الواجهة عدة دكاكين ، هذا ويلاحظ وجود مصلى بأحواش الوكالات وان كانت فقدت في زمن غير معلوم . أما الأدوار العليا ويطلق عليها اسم الرباع فكانت مخصصة للسكن اما للتجار أو لمن يشاء ، وهي عبارة عن مساكن تفتح على ممر يطل على الصحن وكان لهذه الأدوار باب خاص غير الباب الأصلي للمبنى يرتقى اليها منه بواسطة سلالم ، وكانت شبابيك تلك المساكن وفتحاتها تغطى بالمشربيات وأنواع الخرط المختلفة من الخشب ، وكل هذه الوكالات بما يعلوها من رباع كانت للاستغلال وكانت موقوفة على منشآت السلطان ، وعلى أعمال الخير ، وبعضها انشيء

خصيصا ليصرف ريعه فى شراء قمح الدشيشة التى كانت ترسل لفقراء الحجاز صدقة من السلطان ، وجلها انشىء من مال السلطان الخاص الذى تصدق به عقب عودته من تأدية فريضة الحج . وقد انشىء منها الكثير ، وزال معظمها من الوجود .

بقى من هذه الوكالات والرباع بمدينة القاهرة وكالة السلطان عند باب النصر ، وقد بنيت فى رحبة جامع الحاكم بأمر الله ، وذكر السخاوى أن دورات المياه بها كانت خلف بيت خطيب المسجد ، وقد نقش على هذه الوكالة على ازار من الخشب ما يفيد بوقفها لشراء قمح الدشيشة لفقراء الحرمين الشريفين وقد أضفى عليها ذلك اسم وكالة الدشيشة ، وكان المشرف عليها كاتب السر عبد العزيز الفيومى الذى أشار ببناء مسكن علو قاعة الخطابة ليسكن به ، ولما انفصل من الخطابة زعم أنها بنيت له ، وأفهم أنها انما بنيت سكنا للخطيب . وثمة وكالة أخرى من وكالات السلطان مازالت قائمة بحى الأزهر أمام الواجهة القبلية للمسجد وتعتبر زخارفها من أعظم زخارف الحفر على الحجر فى العصر المملوكى .

ومن عمائر السلطان التى تدخل تحت نظام الوكالة والربع بمدينة القاهرة الخان الذى أنشأه عند خان الخليلى ، وربع الصوفية بالقرافة الشرقية ، والربع الذى أنشأه فوق باب الكبش بعد تجديده والذى أوقفه على اقامة الشعائر ، وأشرف عليه

فائق المؤيدى ، والربع الذى جدده بجوار المدرسة الجاولية وقد هدم عند فتح الشارع ، وكانت عليه كتابات حفظت بمتحف الفن الاسلامى ، وكان موقوفا على المدرسة الجاولية ، وقد أنشأه من ربع الوقف ، وأشرف عليه الناصر الاخميمى أمام السلطان . والربع الذى أنشأه بجوار جامع الروضة والقاعة خلفه والدكاكين وجميعها باشراف البدر بن حسن الطولونى ، والربع تجاه جامع سلطان شاه (بشارع حسن الأكبر) أعلاه المطهره ، والذى أشرف عليه الاستادار . كما أنشأ السلطان عدة رباع وخان بالبندقانيين من أحياء القاهرة القديمة وكذا رباعا بالزجاجين والخشابين من أحياء القاهرة القديمة كذلك ، وكان المشرف عليها شاهين الجمالى ، وجدير بالذكر أن تلك الرباع أنشئت ليصرف من ريعها على شراء الدشيشة . وأما الربع الذى أنشأه عند قنطرة الأمير حسين (احدى قناطر القاهرة على الخليج ، وكانت تقع بجوار متحف الفن الاسلامى ، فكان المشرف عليه عبد الكريم بن ماجد القبطى كاتب السر . هذا وقد أنشأ بالزجاجين من أحياء القاهرة القديمة ربعين متقابلين وحوانيت ووكالة وغيرها وكان المشرف عليها جاثم دوادار يشبك الدوادار .

أما القصور والمنازل فأنشأ منها الكثير كما جدد وأضاف الكثير عليها أيضا .

بقى من قصور السـلطان قصر كبير يطل على شارع باب الوزير وشارع سوق السلاح آل الى عائلة الرزار ومازال به باب عليه اسم السلطان وألقابه والقصر الثانى مازال قائما خلف مسجد الماردانى بحى الدرب الأحمر وتدل مساحته الشاسعة على ماكان عليه من عظمة وجمال ومازال اسم السلطان منقوشا على أجزاء منه وأهم ما فى تلك القصور المقعد والحوش والحواصل المحيطة به والقاعات العديدة المعدة للسكنى وهذه القصور كان يسكنها السلطان وحريمه قبل أن يلى السلطنة اذ بعدها انتقل الى القلعة مقر السلطان القائم بالأمر •

ومما تبقى من قصور السلطان أيضا المقعد المجاور لمدرسته بالقرافة الشرقية والحواصـل الواقعة أسفله وهو يكون جزءا من منشأة السلطان هناك •

ومن منشآت السلطان القصر الذى بدأ فى انشائه فى ذى القعدة سنة ٨٩٥ هـ على بركة الفيل ليكون مسكنا لابنه محمد وكان نزول ابن السـلطان لذلك القصر لأول مرة فى صفر سنة ٨٩٩ هـ •

وقد زاد وأضاف السلطان الى بيت أركمـاس الظاهرى المطل على بركة الفيل ، الى بيت جرباش بالقرب من حدرة البقر (بشارع السيوفية) ، واقتطع منه مساحة بنى فيها رواقا ومقعدا ودارا لتكون بيتا لأمير ، وأشرف عليه الأمير جانم ثم شاوبك ،

والى بيت الطنبغا المرقبى بخط سويقة اللالا المطل على الخليج، والى بيت بروبك المعمار المطل على بركة الفيل ، وجدير بالذكر أن هذا المنزل كان يقع فى درب الخازن (نور الظلام الحالى)، كما كان مجاورا لبيت امامه البرهان الكركى ، والى بيت خيربك من حديد المطل على بركة الفيل • وجدد بيتا تجاه السابق وكان المشرف عليه الحاج رمضان المهنتار ، وبيتا بباب سر جامع موضون وكان المشرف عليه جانم ، وبيتا بسويفة العـــزى (بحى الدرب الأحمر) ، وكان يسكنه ابن الظاهر خشقدم • وأنشـــأ ببيت مثقال بالأزهر ربعا وقاعات ، كما زاد فى بيت ابن عبد الرحمن الصيرفى وبيت ناصر الدين بن أصيل تجاه جامع الأقمر وبيت محمد بن المرجوشى •

أما الأسبلة وما يعلوها من كتاتيب فقد أنشـــأ السلطان الكثير منها وتبقى بعضها بالقاهرة • والأسبلة عبارة عن حجرة تعلو الصهريج الذى تخزن فيه المياه كل عام أثناء الفيضـــان ، ويعلوها حجرات لتعليم الأطفال الصغار وكانت الأسبلة اما ملحقة بمبان مثل المساجد واما منفردة ، ومما تبقى من أســبلة السلطان سبيله والكتاب الذى يعلوه والملحق بمدرسة السلطان بالقرافة الشرقية وهو يعتبر من أبدع الأسبلة ، ومنها سـبيل السلطان الذى مازال قائما بحى الخليفة بالقرب من مقر الشرطة هنـــاك وكان موقعه قديما يقال له سويقة منعم ، وهو من الأســـبلة

المنفردة أشرف على بنائه قانى باى قرا ويقال انه انشىء مكان سبيل أزاله السلطان معتلا بأنه كان معترضا الطريق ، ويعتبر هذا السبيل أروع وأحسن مثل كامل للأسبلة وقد نقشت عليه كتابات بها اسم السلطان وتعتبر زخارف واجهاته مثلا رائعا لزخارف مبانى المماليك الشراكسة ويعلوه حجرات لتعليم الأطفال • ومن الأسبلة الباقية أيضا سبيل السلطان بحى الأزهر بجوار وكالته هناك وهو يقع فى زاوية الوكالة ولكنه لم يكن ملحقا بها ويعلوه كتاب وتعتبر زخارفه مثل طيب لزخارف ذلك العهد ، وعقب الفراغ من بنائه سقى السلطان الناس السكر أياما • وهناك سبيل آخر فى الزيادة القبلية لجامع أحمد بن طولون وهو سبيل منفرد أيضا ولا يوجد به كتاب •

كما أنشأ السلطان بمدينة القاهرة سبيلا وصهريجا عند قنطرة الأمير حسين وسبيلا برباع الدجاجين وسبيلا وكتابا بالقرب من القشاشين (تحت الربع) ، وسبيلا وصهاريج للمياه بجوار الزدرخانه بالقلعة ، وسبيلا بجوار باب القرافة (بحى السيدة عائشة) هدم فى السنوات الأخيرة •

وأنشأ سبيلا بجهة مقطع الحجارين بالمقطم بالقرب من القلعة مازال قائما وهو المسجل خطأ تحت اسم قبة يعقوب شاه المهمندار ، ولهذا السبيل أهمية خاصة ، اذ نقش على واجهته

انتصار جيوش مصر تحت حكم قايتباى على جيوش العثمانيين وأسر قائدهم ، وهو من انشاء يعقوب شاه المهمندار .

وأنشأ خارج القاهرة سبيلا بجوار جامع سلمون الغبار وسبيلا بجوار جامع القرية وسبيلا بجوار جامع العباسة ، وسبيلا وصهاريج بالقرب من قنطرة المرج والزيات .

وأما أحواض سقى الدواب فقد أنشأ السلطان عددا كبيرا منها ، والحوض عبارة عن بناء مستطيل له ثلاثة جوانب وبه حوض يملأ بالمياه وحتى تلك الأحواض لا تخلو من الزخرفة والكتابات وقد بقى منها ثلاثة أحواض حوض بجوار مدرسة السلطان بالقرافة الشرقية وكانت تصل اليه المياه من الساقية المجاورة ، وحوض بجوار مدرسة السلطان بقلعة الكبش ، ولعل النموذج الكامل من تلك الأحواض حوض السلطان بجوار وكالته بالأزهر .

هذا وقد جدد وأنشأ السلطان بالقاهرة حوضان للجاولية وحوضا بالخشابين باشراف شاهين الجمالى وحوضا بالدجاجيين، وأنشأ خارج القاهرة حوضا بالقرية وحوضا بالعباسة وحوضا فى المرج والزيات .

أما أعمال الرى فقد اهتم السلطان قايتباى بانشاء القناطر والجسور وأنشأ عدة منها بالشرقية والغربية ومن تلك القناطر

قناطر الجيزة التى تم بناؤها على يد الأتابكى أزبك ، وقيل ان السلطان أنفق عليها نحوا من مائتى ألف دينار • وأما القناطر بشبرامنت بمحافظة الجيزة فقد بلغ قيمة ما أنفقه السلطان عليها خمسة آلاف دينار ، وتم ترميمها على يدى الأتابكى أزبك ، بنى عندها رصيفا عاد بنفع كبير على المسافرين أيام فيضـــان النيل ، وبنى السلطان لنفسه منظرة وأنشـــأ حقولا على بركة هناك ، وكانت من أعظم المتنزهات • كما أمر السلطان بتجديد قناطر أبو المنجا تم ذلك على يد البدرى حســن بن الطولونى وعادت القناطر الى ما كانت عليه وكانت آيلة للســـقوط وبلغ ما أنفق على ترميمها حوالى سبعة آلاف دينار • وجدير بالذكر أن اسم السلطان مازال موجودا على هذه القنطرة على احــدى واجهتيها بينما رنك (أى شارة) السلطان بيبرس الذى أسس تلك القنطرة على الواجهة الأخرى وقد اختلف علمــاء الآثار فى ماهية الأعمال التى قام بها قايتباى ومهما يكن من أمر فان أعماله حافظت بلا شك على بقاء تلك القنطرة • كما جـــدد السلطان قنطرة باب البحر ، ومقياس النيل •

وجه السلطان قايتباى اهتمامه للعمـــارة الحربية لما كان يهدد البـــلاد من غارات الصليبيين ، الذين لم ينسوا ما قام به المسلمون من تجمع أدى الى طردهم من آخر معاقلهم فى الشام على يد الأشرف خليل بن قلاوون ، بل وأخذ المسلمون يتوجهو ن

للقضاء على معاقلهم فى البحر الأبيض المتوسط فكان الاستيلاء على جزيرة قبرص ومحـــاولة فتح رودس ، وكثيرا ما هــدد الصليبيون الســـواحل المصرية ولم يتركوا فرصـــة مواتية الا وانتهزوها لضرب الدولة المملوكية بغية القضاء عليها ، وقد اهتم ســلاطين المماليك بتحصين الثغور والشــواطىء ، وكان للكارثة التى حلت بالاسكندرية فى أيام السلطان شعبان بن قلاوون أكبر الأثر فى اهتمام السلاطين بتحصينها وتحصين دمياط ورشيد، ففى المحرم سنة ٨٨٤ هـ سافر الأمير يشبك الى ثغر دمياط وأنشأ على فم البحر الأبيض المتوســـط عند برج الظـــاهر بيبرس البندقدارى سلسلة من حديد زنتها نحوا من ٢٥ قنطـارا من الحديد ، وكان لهذه السلسلة وجود فيما مضى ، فجـــددها الأمير يشبك وكان لاعادتها فائدة جليلة ضد مراكب الفرنج . ومما أنشأه السلطان أيضا سور مدينة تروجه ، أما مدينة رشيد فقد أنشأ السلطان بها قلعة أطلق عليها اسم البرج مازالت بعض أطلالها قائمة حتى الآن ، وقد عرفت فى كتب الرحالة الأجانب باسم قلعة سانت جوليان أحد قواد الحملة الفرنسية الذى عهد اليه بحمايتها ، وفى أثناء ترميم تلك القلعة عثر القـائد الفرنسى بوشار على حجر عليه كتابات بلغات قديمة عرف فى التاريخ باسم حجر رشيد ، نقل الى المتحف البريطانى بلندن وما زال معروضا به ، وقد ساعد هذا الحجر على حل رموز اللغة المصرية القديمة، وكان المشرف على انشائها مقبل الحسنى الظاهرى جقمق .

أما مدينة الاسكندرية فقد حظيت بعناية السلطان وأنشأ بها قلعة أطلق عليها اسم البرج ، وتعتبر أكبر آثاره الحربية ، أمر السلطان بانشائها عند زيارته للاسكندرية لأول مرة ، عند موقع الفنار القديم وأوصى بأن تستعمل أساسات الفنار القديم كذلك، ثم زارها للمرة الثانية وعاين المبنى بعد الانتهاء منه ، وكان المشرف على عمارته البدرى بن الكويز والعلائى بن خاص بك ، كان المبنى متصلا بالشاطىء بواسطة ممر معقود ، ويشتمل على مسجد وطاحونه وفرن ومخازن للأسلحة ومقعد مطل على البحر لرؤية المراكب التى تدخل الميناء ، وكان يتخلل السور المحيط بالحصن فتحات للمدافع ، ويقال ان السلطان أنفق على بنائه أكثر من مائة ألف دينار .

وفى مدينة القاهرة جدد السلطان أسوارها وجدد باب القرافة ونقش اسمه عليه ، وحظيت القلعة بعناية السلطان فجدد الباب المدرج والأسوار وعندما أحرق باب السلسلة فى حريق عام ٨٨١ هـ سقط جزء كبير من حوائطه وقام قانصوه خمسمائة فى سنة ٩٠٠ بتجديد ذلك السور وأنشأ مقعدا مطلا على ميدان الرميلة (صلاح الدين الآن) والمبيت وأقام حوله الأبراج . وعندما حاول الجلبان اغتيال السلطان أمر بتعلية حوائط المبيت ونقل المماليك من طبقة الحوش وسد بابها وهدم سلمها . ثم جدد السلطان الايوان الكبير بالقلعة وكان المشرف على الاصلاح

كاتب السر ابن مزهر والبدر بدر الدين بن الكويز ، ويقال ان السلطان أنفق فى اصلاحه عشرين ألف دينار • وفى سنة ٨٩٩هـ أصاب حواصل السلطان حريق • وجدد بالقلعة قاعة الدهيشة والحوش وأنشأ بداخله القاعات والمقعد وأنشا فوق أبواب الحوش قصرا • وأصلح دور الحرم ومجرى المياه الواصلة الى القلعة • وجدد قاعة البحر ، وأنشأ بجوارها عدة حواصل •

اعمال قايتباى بالشام :

حظيت ولايات الشام برعاية السلطان قايتباى فأنشأ فيها العمائر على اختلاف أنواعها ، وعمل على تحصين البلاد الواقعة على الحدود ، فأمر فى شعبان سنة ٨٨٧ هـ بعمارة سور البيرة واعادته الى حالته الأصلية ، كما أمر فى ربيع الآخر سنة ٨٩٤ هـ باصلاح سور قلعة سيس بعد أن هدمته الصاعقة • وفى مدينة القدس قام قانصوه اليحياوى الذى كان نائبا للشام ونفى الى القدس باصلاح عين ماء بها كانت معطلة مدة طويلة ، وأنفق عليها مالا كثيرا وعم بها النفع الكثير • أنشأ السلطان مدرسة جليلة بالقدس بها شيخ وصوفية ودرس وعين فى مشيختها الشيخ كمال الدين بن أبى شريف المقدسى ، وأرسل السلطان القراء والوعاظ للقدس ليقيموا وليمة عند افتتاح مدرسة السلطان هنالك • وبنى بالقدس سبيلا له قبة • وأمر باعادة بناء كنيسة

اليهود بالقدس الشريف بعد هدمها سنة ٨٧٩ هـ ، وعرض السلطان نفسه لنقد المعاصرين بسبب ذلك . وأمر بانشاء جامع فى غزة .

وأوفد السلطان القاضى شرف الدين الأنصارى الى الكرك لعمارة عين يصل منها الماء الى الحاج ، وقيل لاصلاح الكرك وقلعتها .

وأنشأ مدرسة فى دمشق ورمم الجامع الأموى وأنشأ دكاكين ورباع بها .

وأنشأ فى حلب الكثير من العمائر وقد نقش اسمه على الكثير منها من ذلك سور حلب وأبوابه وقلعة حلب وسبيلا « برد بك بن عبد الله » تاجر المماليك السلطانية فى الرمضانية وفى جامع الشرف وغيرها .

كما نقش اسمه على الكثير من الآثار التى أنشأها رجال الدولة فى جميع انحاء الشام .

اعمال قايتباى بالحجاز :

اعتنى السلطان قايتباى عناية فائقة ببلاد الحجاز تتناسب مع قدسية تلك البلاد وليثبت أن سلطان مصر جدير بلقب « خادم الحرمين الشريفين » . ومن أعمال السلطان بمكة ، اصلاح عين عرفات والانتهاء منه فى شعبان سنة ٨٧٥ هـ بعد أن

انقطع ماؤها نحوا من مـائة عام ، كما أصلح فساقيها ، وأمر السلطان بترميم قبة عرفة وتبييضها • وأنشأ مدرسة عظيمة عند باب السلام وقرر بها صوفية وتداريس وفقراء وخزانة للكتب والربعات •

أمر السلطان باصلاح مسجد الخيف وبنى به قبتين احداهما على المحراب النبوى والثانية على المحراب الثانى ، وبنى منـارته وبوائكه الأربع والبوابة وبابى المسـجد ، وبنى بجواره سبيلا فوق الصهريج •

أما مسـجد تمرة المعـروف بالخليل ابراهيم فأنشأ فيه بائكتين بالجهة القبلية لتكون ظلة للحجـاج وبنى قبة فـوق المحراب ، وحفر بوسطه صـهريجا وبنى المصطبة الموجودة فى وسطه •

وأصلح سلالم مشعر المزدلفة •

وعمر بركة خليص وأجرى اليها العين •

وأصلح مسجد بركة خليص •

وعمر سقاية العباسى •

وأصلح بئر زمزم والمقام وعلا مصلى الحنفية •

أنشأ رباطا للفقراء والطلبة بجوار مدرسة باب السلام ، وكان يفرق الخبز والدشيشة كل يوم •

أمر بوضع منبر بالمسجد الحرام بدلا من المنبر الذى أتلفه السيل •

أنشأ عدة رباع بمكة •

كان السلطان يرسل كسوة الكعبة ومقام ابراهيم وأقام لها احتفالا عظيما فى رجب سنة ٨٩٦ مع المحمل وكان حاضرا رسول سلطان بنى عثمان •

أما المدينة المنورة فقد أنشأ السلطان بها مدرسة كان المشرف على بنائها الخواجا شمس الدين بن الزمن ، وأخذ على السلطان فتح شبابيك تلك المدرسة على الحرم النبوى وأفتى العلماء بأن ذلك لا يجوز فان حرمة النبى صلى الله عليه وسلم وهو ميت كحرمته وهو حى •

وصنع فى عهده مقصورة جديدة من النحاس للحجرة الشريفة وعرضها السلطان فى شعبان سنة ٨٨٨ هـ ونصبها فى الحوش السلطانى بالقلعة وقيل ان زنتها أربعمائة قنطار من الحديد وقد حملت الى المدينة على سبعين جملا مع شاد بك الذى عين قائدا للجند بمكة ومعه خمسون مملوكا ، وأرسل معه مصحفا كبيرا حمل على جمل بمفرده بخط شاهين الشورى الذى مات ولم يكمله فأكمله الشيخ خطاب ووضع بالحجرة الشريفة • أرسل السلطان كما أرسل السلاطين قبله الكثير من

الهدايا من شماعد وقناديل وطرف وغيرها وقد تجمع منها عدد كبير بجانب أموال النذور حتى طمع أمير مكة فى الحواصل التى كانت محفوظة فيها فسطا عليها واستولى على اثنى عشر ألف دينار وعدة قناديل من الذهب كانت معلقة بالحجرة الشريفة وهرب الى العراق .

جدد السلطان المنبر والحجرة الشريفة وما جاورها والمصلى النبوى والمحراب العثمانى وأنشأ مئذنة فريدة . ورتب للفقراء والمنقطعين الكثير من الخيرات من ريع منشآته فى القاهرة والتى أوقفها عليهم .

تعرض المسجد الشريف لصاعقتين فى سنة ٨٨٦هـ و ٨٩٨هـ وأمر السلطان باصلاحه اصلاحا شاملا ، وأنفق على ذلك الاصلاح أموالا طائلة .

عمائر رجال الدولة فى عهده :

انتقل حب السلطان وولعه بالعمارة الى أمراء دولته وقد أنشأوا الكثير ، نقتصر على سرد ما أنشىء فى مصر منها ومازال قائما حتى الآن :

مسجد المرأة (فاطمة الشقراء) بشارع تحت الربع .

مسجد تميم الرصافى بحى السيدة زينب .

مسجد وسبيل تمراز الأحمدى بحى السيدة زينب •

مدرسة وقبة جانم البهلوان بأول شارع الروحية •

مدرسة أبو بكر مزهر بالخرنفش •

مسجد وحوض قجماس الاسحاقى بالدرب الأحمر •

مسجد السلطان أبى العلا •

تكية أحمد أبوسيف بالقرافة الشرقية •

زاوية فاطمة أم خوند بباب الشعرية •

مسجد بدر الدين الوفائى بشارع الزرايب بحى الخليفة •

مسجد أزدمر بشارع صلاح سالم بجوار مجرى العيون •

مدرسة الأمير أزبك اليوسفى بحى السيدة زينب •

ضريح الشرفا بالقلعة •

مقعد الأمير ما ماى المعروف باسم بيت القـــاضى بحى الجمالية وهو بلاشك متخلف من قصر كبير كان هناك •

وهناك آثار لأمراء دولته ورجالها عفت الأيام على آثارها فيها :

جامع أزبك من ططخ بالأزبكية ، وحوضه وسبيله بطريق بركة الحاج ، حوض وسبيل وبستان سيدى ابراهيم بن على بن

عمر المتبولى وكان أحد الصالحين المعتقدين لاترد شفاعته عند السلطان والأمراء .

ولا تقل المبانى التى أنشأها رجال الدولة فى عصره عن مبانى السلطان فقد كان يتعهدها برعايته ويساعدهم على انجازها على وجه يليق بمكانة القاهرة وسلطانها المبجل .

من المراجع

١ ـ المخطوطات

١ ـ ابن اجا (شمس الدين قاضي العسكر) •

تاريخ الأمير يشبك الدوادار ورحلته الى آسيا الصغرى •

٢ ـ الجوهرى (نور الدين على بن داود)

أنباء الهصر فى أبناء العصر •

(نشر عبد الرحمن محمود عبد التواب « تحت الطبع »)

٣ ـ السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن)

(أ) تاريخ الملك الأشرف قايتباى المحمودى الظاهرى •

(ب) كوكب الروضة •

٢ ـ المطبوعات

١ ـ ابن الجيعان (شرف الدين أو البقاء يحيى)

القول المستطرف فى سفر الملك الأشرف •

٢ ـ ابن العماد (أبو الفلاح يحيى الحنبلى) •

شذرات الذهب فى أخبار من ذهب •

٣ ـ ابن العيدروس (عبد القادر) •

النور السافر •

٤ ـ الغزى (نجم الدين محمد بن أحمد)

الكواكب السائرة بمناقب المائه العاشرة •

٥ ـ ابن اياس (محمد بن أحمد)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

٦ ـ السخاوى (أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد) .
الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع .

٧ ـ السيوطى (جلال الدين بن عبد الرحمن) .
(أ) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الله .
(ب) حسن المحاضره فى تاريخ ملوك مصر والقاهرة .

٨ ـ دراج (الدكتور أحمد) .
(أ) جم سلطان (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) .
(ب) رسالتان بين سلطان ملوه وقايتباى (مجلة معهد المخطوطات) .

٩ ـ زامباور
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة .
(الترجمة العربية)

١٠ـ زيادة (الدكتور محمد مصطفى) .
نهاية سلاطين المماليك (مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية) .

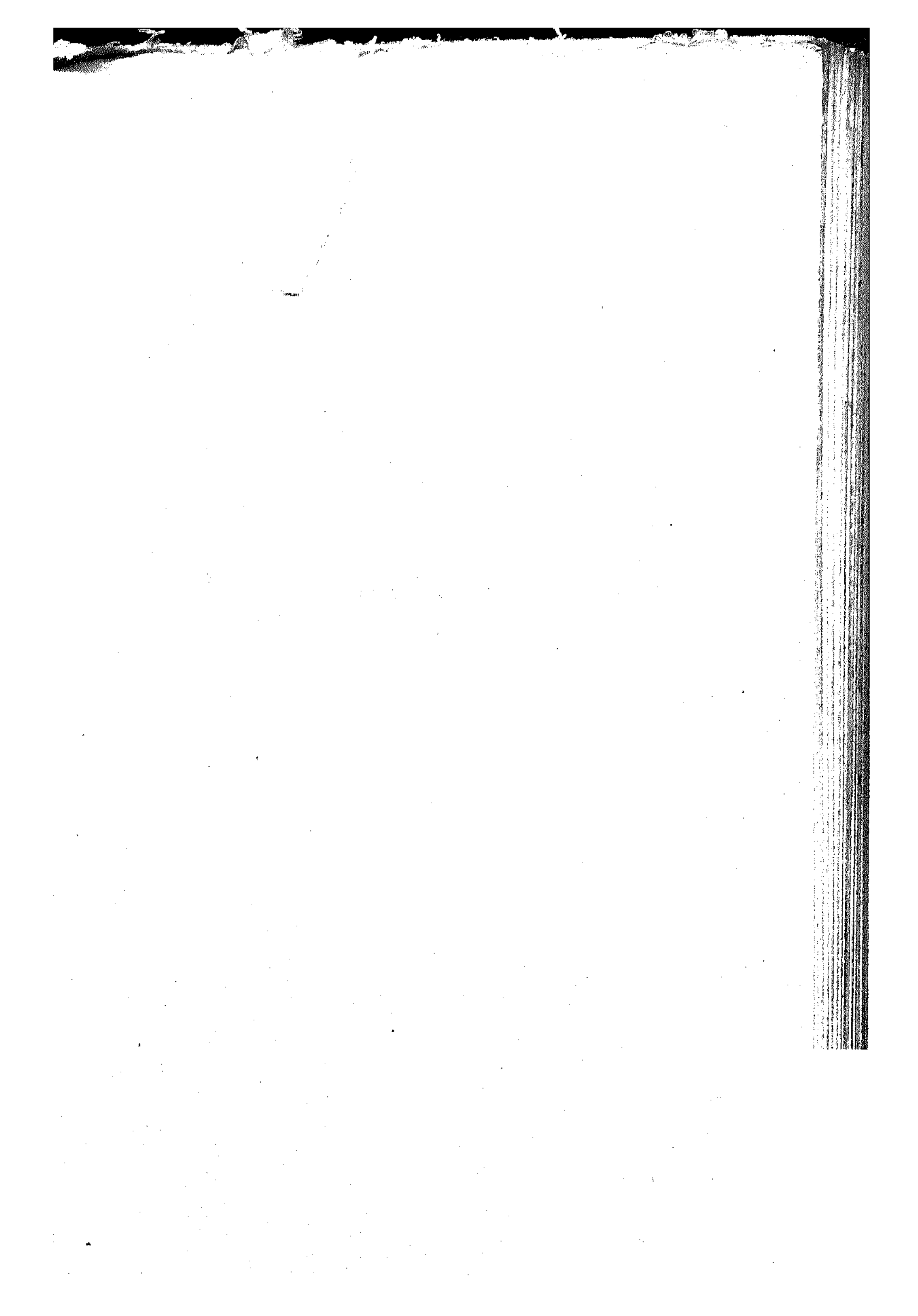
١١ـ طرخان (الدكتور ابراهيم علي)
مصر في عصر دولة المماليك الشراكسة .

١٢ـ المقدسى (مجير الدين العليمى الحنبلى)
الأنسى الجليل بتاريخ القدسى والخليل .

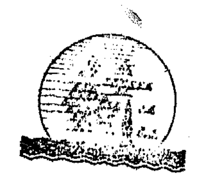
١٣ـ مرعى (يوسف بن أبى بكر بن أحمد المقدس)
نزهة الناظرين فى تاريخ من تولى مصر من الخلفاء والسلاطين .

٣ ـ المراجع الأجنبية

1. **Lane-Pole, S.:**
   A —— A History of Egypt in the Middle Ages.
   B —— Sarasenie Art.
   C —— The Story of Cairo.
2. **Syke, Sir, P.M.:**
   History of Persia.
3. **Wiet, G.:**
   Deux Princes Normans à la Tour d'Egypte
   B.T.E., Tome 20 (Session 1937-1938), pp. 137-150.



فهـــــرس

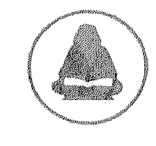


General Organization of the Alexandria Library (GOAL
Bibliotheca Alexandrina

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٨/٣٩١٠
ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٥٦١ ٧





مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٥٥ قرشـــا